" ماركسيون " يلقون براياتهم في الوحول

(1)

كنت قد كتبت سابقاً عن " البورجوازية الوضيعة " التي ترى في الأحزاب الشيوعية منبراً عالياً تطلق منه زعيقها السياسي غير الواضح وغير المفهوم بل وغير المقصود.

اليوم فقط أقرأ السيد كريم مروّه، الذي قضى حياته في صفوف الحزب الشيوعي اللبناني، يكتشف في النهاية أنه كان يحمل الراية الخطأ وأن لينين أساء للعالم بل إن ماركس لو عاد للحياة لما كتب ما كتب؛ كل هذا في مقالته الاعتذارية (يجب أن نحاكم لينين). وهكذا يجرّم كريم مروه لينين، " القائد الثوري العظيم " كما وصفه مع ذلك، ويلقي براية الماركسية أرضاً في الوحل. البورجوازيون الوضعاء (la petite bourgeoisie) لم ينضووا إلى الأحزاب الشيوعية إلا ليتدربوا على امتهان السياسة نظراً لوفرة مردود المهنة معنوياً إن لم يكن مادياً أيضاً، كما يراهنون، وليس للنضال من أجل الوصول إلى الشيوعية وخلاص البشرية. ولذلك، هم لا يقرؤون ماركس جيداً ولم يعْنهم التفقه بأفكاره، وخرجوا بالتالي من الأحزاب الشيوعية كما دخلوا دون أن يزيدوا في علمهم بالماركسية أكثر مما يعلم رجل الشارع.

منذ العام 1959 حين انعقد المؤتمر الحادي والعشرون الإستثنائي للحزب الشيوعي السوفياتي وحتى العام 1961 حين انعقد مؤتمره العام الثاني والعشرون استولى عليّ إحباط شديد حيث أن قادة الأحزاب الشيوعية والمتقدمين في كوادرها ـ وكريم مروه منهم ـ لم ينبس أحد منهم بكلمة إزاء الهرطقات المجنونة التي أطلقها خروتشوف في ذينك المؤتمرين وما بينهما باستثناء الحزب الشيوعي الصيني، هرطقات لا تنتمي إلى عالم الفكر الماركسي من قريب أو بعيد، بل هي من إفرازات النشاطات المعادية للإشتراكية إذ فهم خروتشوف الإشتراكية كما بشر بها المرتد الخائن إدوارد بيرنشتاين والوصول إليها سلمياً بالعكس تماماً مما رآها ماركس فاعتقد أن الفلاحين يتقدمون العمال في بناء الإشتراكية فاصطف على يمين المعدوم بوخارين!! جميعهم صفق للتحريفي المرتد خروشتشوف عالياً وطويلاً. كرجل عاقل فقط كان يتوجب على كريم مروه أن يتساءل، لمرة واحدة على الأقل، فيما إذا كان هو نفسه ماركسياً حقاً قبل أن يعلن إلقاءه راية الماركسية في الوحل. إنني وبكل تواضع أقدم إعتذاري الشديد للسيد كريم مروّه لأطمئنه إلى أنه لم يكن يوماً ماركسياً أكثر مما كان خروشتشوف أو غورباتشوف أو حتى زوغانوف فيما بعد الإنهيار. وللدلالة السريعة على ذلك أشير فقط إلى عبارته في المقالة المشار إليها تقول .. " البنيان العظيم للتجربة الإشتراكية المتمثل بالإتحاد السوفياتي"، فكيف يكون البنيان عظيماً وقد أقيم على أساس خاطئ وأقامه خطاة كما فصّل في المقالة إيّاها وطالب بمحاكمة صاحب المشروع ومؤسسه، زعيم البلاشفة فلاديمير لينين؟!!

الشيوعي السابق كريم مروه، وكما تشي مقالته، لا يعرف من الماركسية حرفاً ورغم ذلك يتنطح لانتقادها بفجاجة دون أدنى تواضع. فمثلاً يصف لينين بذي "الجهد النظري العظيم " الذي تمثل كما يزعم ب "السياسة الإقتصادية الجديدة" (NEP) مدعياً أن تلك "النظرية" السياسية كانت قد شكلت، وكما أرادها لينين بادعائه، الأساس لمراجعة كاملة للمشروع اللينيني، لولا الرحيل المبكر للينين ولولا "الدكتاتور" ستالين!! لو سألنا مروّه عما تكون (النيب) فإنني على ثقة تامة من أنه لن يجد جواباً على الإطلاق بعد أن عمّدها "نظرية سياسية" - ولا أدري حقاً من أين جاء بمثل هذه التخرصات! في العام 1922، وبعد الحرب الأهلية وحروب التدخل الأجنبي 1918 - 1921، التي جعلت من الأراضي السوفياتية قاعاً صفصفاً، وجد لينين أن مجمل إنتاج العمال لا يساوي ربع مجمل إنتاج الفلاحين وفي حالة كهذه لن يستطيع العمال شراء غذاءهم من الفلاحين بصورة عادلة، فكان أن ترك للفلاحين بعض الإمتيازات البورجوازية ريثما يغتني العمال. في العام 1926 عاد إنتاج العمال إلى ما كان عليه عام 1913 فأصبح ممكناً إلغاء معظم أحكام "السياسة الإقتصادية الجديدة" (New Economic Policy) - النيب لا هو نظرية ولا ما يحزنون. في الثورة الزراعية 1929 تحررت القيادة السوفياتية من سلطة كبار الفلاحين وأصبح تأمين الغذاء الكافي للعمال السوفيات تحت سيطرة الدولة. المسألة الزراعية ظلت تقض مضاجع القيادة السوفياتية طيلة عمر الإتحاد السوفياتي ولم يكن ذلك بسبب القصور في إنتاج الغذاء حيث كان إنتاج الإتحاد السوفياتي من الحبوب يزيد على ثلاثة أمثال ما تنتجه الولايات المتحدة إنما كان بسبب عدم إيفاء الفلاحين بالتزاماتهم تجاه الدولة وعدم وفائهم لسياسة التقدم على طريق الإشتراكية. في العام 1950 قامت مناقشة كبيرة للمسألة الزراعية في القيادة السوفياتية وطالب قياديون في الحزب والدولة وعلى رأسهم مولوتوف بإلغاء طبقة الفلاحين التعاونيين دفعة واحدة وإلى الأبد بقرار من قيادة الحزب، إلا أن ستالين، وبحكمته المعروفة، رأى في ذلك خطورة حقيقية على الدولة، وأن الإلغاء يلزم أن يكون تدريجياً عن طريق إغراق السوق بالسلع الصناعية الإستهلاكية الأمر الذي سيواجهه الفلاحون التعاونيون بالتخلي عن الفلاحة والإنضمام إلى البروليتاريا- راجع القضايا الإقتصادية للإشتراكية في الإتحاد السوفياتي، لستالين.

بعناد شديد وهو ما يثير الشك الكبير قبل السخط، يصر الشيوعيون سابقاً، كالسيد مروّه وكثيرين غيره، على وضع مسألة إنحراف خروشتشوف خلف ظهورهم. يخبئونها خلف ظهورهم لا لسبب إلا لحماية أنفسهم ولو كلف ذلك إتهام ثورة أكتوبر لحد اعتبارها خطيئة تاريخية كما يعتبرها اليوم السيد مروّه!! كان هؤلاء الشيوعيون من الأصول البورجوازية الوضيعة قد صفقوا طويلاً وبحماسة شديدة لتحريفات خروشتشوف المنقولة عن بيرنشتاين، أعدى أعداء اللينينية، ولزعيقه المشبوه حول الديموقراطية المفقودة في الحزب بقيادة ستالين- زعق عالياً حول الديموقراطية المفقودة عام 1956 لكنه مع ذلك، وعندما سحبت قيادة الحزب الثقة منه، بعد بضعة أشهر فقط، وكان عليه أن يتنحى، قام هذا الديموقراطي بانقلاب عسكري في حزيران/يونيو 1957 على قيادة الحزب وطرد جميع البلاشفة رفاق لينين من المكتب

السياسي. وعندما أوشك خروتشوف أن يصحو ويرتد عن أخطائه صائحاً برفاقه في المكتب السياسي عام 1964 "خراء ستالين أفضل منكم" انقلبوا عليه وأرغموه على الإستقالة تحت طائلة التهديد بالقتل وأتوا ببريجينيف تاجر السلاح وأبي المافيا ـ هكذا هي ديموقراطية الذين ولولوا على فقدان الديموقراطية في عهد ستالين!!

يطالب كريم مروه بغير خجل بمحاكمة لينين لأنه قام بثورة اشتراكية في روسيا المتخلفة خلافاً لرأي ماركس كما زعم. وردّاً على هذا الزعم فإنني أطالب بمحاكمة كريم مروه بتهمة الجهل أولاً وبتهمة القدح والذم بلينين. وعلي أن أشير هنا إلى الحقائق التالية ليس دفاعاً عن لينين وعن انتفاضة أكتوبر بل تثقيفاً لكريم مروه وكل من يتثاقف معه .

- **ما سمي بثورة أكتوبر لم يكن ثورة ولم يكن اشتراكية كما جرى طويلاً الإعتقاد خطأً. كانت الأممية الإشتراكية الثانية قد اتخذت قراراً في مؤتمرها المنعقد قي مدينة بال السويسرية عام 1912، ينص على أنه يتوجب على الإشتراكيين الروس القيام بالثورة البورجوازية في روسيا واستكمال بناها الاجتماعية حتى النهاية وذلك بسبب هشاشة الطبقة البورجوازية الروسية وضعفها التاريخي. قامت البورجوازية الروسية بثورتها في شباط 1917 إلا أن حكومتها، حكومة كيرانسكي، تخاذلت ولم تعمل على تحقيق أي من أهداف الثورة الكبرى الثلاث وأولها الإنسحاب من الحرب وإعلان السلم ووقف القتال على الجبهة الروسية الألمانية؛ وثانيها، العمل على الإصلاح الزراعي وتأميم الأرض؛ وثالثها، إنتخاب الجمعية التأسيسية للجمهورية. انتفض البلاشفة واستولوا على السلطة ليس فقط بهدف استكمال الثورة البورجوازية كما كانت قد قررت الأممية الثانية بل تلبية لإلحاح مختلف القوى الشعبية المتمثلة بمجالس السوفييت في كل المدن الروسية أيضاً. وهكذا كان أول مرسومين وقعهما لينين كرئيس للدولة هما مرسوم السلام ومرسوم الأرض. وكان لينين صبيحة الإنتفاضة مباشرة أن دعا كل الأحزاب الروسية، بما في ذلك حزب الكاديت الرجعي وهو حزب أغنياء الفلاحين، للمشاركة في الحكومة الجديدة . لكن سرعان ما توحدت جميع الأحزاب البورجوازية والرجعية بما في ذلك حزب المنشفيك وحزب الإشتراكيين الثوريين ـ وكان مشاركاً في حكومة لينين ـ في جبهة معادية رفعت السلاح بوجه البلاشفة ليس بهدف استعادة السلطة فقط بل بهدف إبادتهم وتصفيتهم نهائياً أيضاً. لم تتردد هذه الأحزاب لدى انتهاء الحرب الأهلية التدميرية والدموية في دعوة الجيوش الأجنبية للقضاء على الشيوعيين. إلتف العمال والفلاحون الروس حول الشيوعيين فكان انتصارهم حاسماً ومصيرياً على طبقات البورجوازية والرأسماليين والإقطاع والفلاحين الأغنياء وعلى تسعة عشر جيشاً أجنبياً دخلت روسيا لإبادة الشيوعيين. لم يبق في الميدان إلا العمال وفقراء الفلاحين. واجه الحزب في مؤتمره العاشر 1921 مأزقاً دقيقاً وحاسماً.. هل يبني الحزب مجتمعاً بورجوازياً رأسمالياً مستكملاً الثورة البورجوازية كما بدأ بانتفاضته في أكتوبر 1917 أم يشرع في بناء الإشتراكية؟! البلاشفة بقيادة لينين لم يكونوا خبراء في بناء الرأسمالية، هذا إذا شاءوا ذلك!! وماذا كان سينصحهم كريم مروه؟!! الإشتراكية لم تكن خياراً أمام البلاشفة في العام 1921 بل المسار الوحيد المفتوح أمامهم .**

• أما بشأن تلك الأسطوانة المشروخة التي تقول بأن لينين قام بثورة اشتراكية في غير مكانها فإنني أنصح السيد كريم مروه بالعودة إلى المقدمة التي كتبها كارل ماركس نفسه لأول طبعة لترجمة البيان الشيوعي باللغة الروسية عام 1882 أي قبل رحيله ببضعة أشهر. أشار ماركس في تلك المقدمة إلى إمكانية قيام الثورة الإشتراكية العالمية في روسيا القيصرية قبل غيرها من الدول معولاً على شكل من أشكال الكومونات الزراعية المنتشرة في شرق روسيا القيصرية آنذاك. على مروّه وجميع الذين يرون في لينين مغامراً استعجل الثورة في روسيا المتخلفة أن يوقفوا مثل هذه الأسطوانة المشروخة طالما أن ماركس نفسه لم يستثن روسيا من الشروع بالثورة.

• ثم وبغض النظر عن كل ما تقدم فإن لينين "المخطئ والخاطئ بنفس الوقت!" وستالين "المجرم والدكتاتور!" هما من سلما كريم مروه وأمثاله "البنيان العظيم للتجربة الإشتراكية في الإتحاد السوفياتي" ـ بكلمات مروه نفسه ـ وهو البنيان الذي هزم وحده كل النازية والفاشية والرجعية في أوروبا، والذي لم يبدأ في التفكك إلا بعد أن استلمه كريم مروّه وأمثاله. نعم كانت روسيا القيصرية بلداً متخلفاً قياساً إلى ألمانيا في العام 1917 لكن الإتحاد السوفياتي عندما استلم قيادته "الديموقراطيون" من أمثال كريم مروه في العام 1954 كان متقدماً على ألمانيا وعلى بريطانيا بل وعلى الولايات المتحدة تقنياً وقد سبقها في ارتياد الفضاء. العلة إذاً في كريم وفي أمثاله، كما اعترف سهواً، وليس في قادة البلاشفة، لينين وستالين ورفاقهما.

كريم مروة الذي كان من قادة الحزب الشيوعي اللبناني لم يقرأ ماركس ولينين فقط بل لم يقرأ التاريخ أيضاً، ومن لم يقرأ التاريخ كما هو في حقيقته فإنه لا يستطيع أن يقرأ ماركس على حقيقته أيضاً حيث أن التاريخ كتاب صفحاته الصراع الطبقي. ولأنه لم يقرأ التاريخ على حقيقته فهو يثني باللائمة على البلاشفة لأنهم لم يتحالفوا مع "الإشتراكيين الديموقراطيين" ومع الديموقراطيات البورجوازية ضد النازية والفاشية المتفشية في أوروبا في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي لكن الإشتراكيين الديموقراطيين لم يكونوا أقل حماساً في إبادة الشيوعيين البلاشفة من رفاقهم المناشفة الروس. وقفوا ضد جمهورية بافاريا السوفياتية عام 1919 وشاركوا فيما سمي آنذاك "الإرهاب الأبيض" وفي اغتيال الشيوعيين وأولهم القائدان التاريخيان روزا لكسمبورغ وكارل ليبكنخت ليقيموا على إثر ذلك جمهورية (فيمار) التي كانت السلّم الذي صعد عليه أدولف هتلر. في انتخابات 1933 في ألمانيا تآمر الإشتراكيون الديموقراطيون والمخابرات الإنجليزية لإفساح الطريق أمام حزب هتلر لاكتساح الإنتخابات وقطع الطريق على الشيوعيين. في حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا 1936 سرعان ما استثنى الإشتراكيون الديموقراطيون بقيادة ليون بلوم والراديكاليون بقيادة إدوارد دالاديه الشيوعيين من الجبهة وتبين فيما بعد أن إبعاد الشيوعيين إنما كان تمهيداً لخيانتهم حكومة الجمهورية الشعبية في اسبانيا وانتصاراً لفاشية فرانكو. إدوارد دالاديه، الرئيس الذي ورث

حكومة الجبهة الشعبية هو من تآمر مع هتلر في مؤتمر ميونخ وعقد تحالفاً غير مكتوب ضد الإتحاد السوفياتي بالإشتراك مع بريطانيا تشيمبرلن وإيطاليا موسوليني. ثم منذ أن بدأ العدوان النازي على الإتحاد السوفياتي في 22 حزيران 1941 توقفت الحرب على الجبهة الغربية وأخذ الجنود الألمان على الجبهات السوفياتية يقضون إجازاتهم في الجبهة الغربية. كان تشرتشل وبعض أصدقائه في الإدارة الأميركية ينتظرون نهاية الإتحاد السوفياتي على أيدي الهتلريين!! لم تفتح الجبهة الغربية إلا في 6 حزيران 1944 بعد أن اتضح بصورة قاطعة أن هزيمة ألمانيا النازية أصبحت محققة وخاصة بعد معركة كورسك في تموز 1943، وقد فتحت الجبهة الغربية بضغط من الرئيس روزفلت والجنرال ايزنهاور الذي اتهم تشرتشل بالخيانة لمعارضته بدء الأعمال الحربية وإنزال النورماندي، وكانت أعمال هذه الجبهة جانبية وغير مؤثرة. وبكلمة في هذا المقام فإن السيد كريم مروه يقرأ التاريخ بالمقلوب فليس البلاشفة هم من رفضوا التحالف ضد النازية بل الإشتراكيون الديموقراطيون والبورجوازيون الليبراليون هم من رفضوا التحالف مع الشيوعيين مؤملين تصفيتهم على أيدي النازيين وهو ما يعترف به اليوم حتى مؤرخو الغرب الليبرالي .

الذين ألقوا برياتهم الماركسية في وحول البورجوازية الوضيعة تحولوا إلى اجترار أفكار بائسة كالتي عبر عنها كريم مروّه في مقالته "يجب أن نحاكم لينين". هؤلاء لم يفهموا ماركس يوماً وقد اعتقدوا أن ماركس ما كتب ما كتب إلا لكي يقيم العدل بين الناس. لو كان ذلك صحيحاً لما انتبذ ماركس وعائلته الحياة بمسراتها ومباهجها وعانى من شظف العيش طيلة حياته ليكتب ما كتب. لقد سخر ماركس سخرية مرة من مفهوم العدالة الذي اجترته فرق عديدة من الإشتراكيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر واعتبره مفهوماً بورجوازياً تضليلياً بائساً وعديم الدلالة. فالعدالة المزعومة لا يمكن استحضارها معزولة عن مفهومي القيمة والتحصيص. من اخترع مفهوم العدالة لم يكن يقصد العدالة بطوباها أصلاً، غير أن الهروب من مفهوم الصراع الطبقي غير المقبول عليه لم يكن ممكناً دون ارتداء ثوب العدالة الزائف. لا بد للمولج بإقامة العدالة بين أفراد الشعب من أن يتولى بداية التقييم كي يحسن التحصيص. البشرية لم تعرف عبر تاريخها الطويل من يقوم بالتقييم والتحصيص الدقيقين غير "السوق" . لكن السوق هي المستنبت الذي تربته الوحيدة هي الصراع، الصراع بين مختلف الجماعات والطبقات المنتجة عن طريق التنافس السلعي. وفي الصراع تنتفي طوبى العدالة. تلك هي خديعة العدالة، لعبة البورجوازية المفضلة والتي يلعبها اليوم وفي زمن غير زمانها، المستقيل من الماركسية، كريم مروّه .

يتجرّأ مروّه على ماركس ويبتذله أيما ابتذال فيزعم أن العدالة كانت هاجس ماركس الأكبر!! - والحق أنني أحسّ بماركس ينتفض في قبره من مثل هذه الجرأة عليه وهذا الابتذال لأفكاره - ومن أجل تحقيق العدالة "الماركسية" يطالب مروّه بتشكيل كتلة تاريخية تتألف من مجموعات متباينة الإتجاهات تأخذ على عاتقها "مقاومة الرأسمالية المتوحشة والحد من أخطار مغامراتها" - لا أدري لمن يوجه خطابه هنا، للشيوعيين أم للاشتراكيين الديموقراطيين أم

لأحزاب البورجوازية الوضيعة في الدول المتخلفة؟!. الصورة التي يرسمها هذا المستقيل من الماركسية هي صورة ما فوق التجريد. إنها لم ترسم الطبيعة المتباينة لهذه الكتل! ولماذا يسمح هذا التباين بالائتلاف!! ولم توضح الصورة الهدف من مقاومة الرأسمالية المتوحشة المتعولمة!! هل لتطهيرها من الوحشية وتحريم العولمة عليها؟! أم مقاومتها حتى القضاء عليها؟! ثم القضاء عليها لمصلحة أي نظام ؟ لمصلحة الإشتراكية أم العدالة الإجتماعية المزعومة التي على مروّه إذاك رسمها بالتفصيل؟ وإذا لم يتم القضاء عليها نهائياً فما الذي سيضمن عدم عودتها للتوحش وللعولمة؟؟ وأخيراً وليس آخراً، ما عساه يكون النظام الإجتماعي في تلك الكتل المتآلفة من أجل مقاومة الرأسمالية؟! لئن كان رأسمالياً في بعضها فلماذا إذاً عليها أن تقاوم مثيلتها الرأسمالية؟؟ ـ هذه ليست صورة على الإطلاق؛ هذه خربشة من يخربش لقتل الوقت هرباً من الملل. صورة الكتل المتباينة المتآلفة المتسالمة هي ليست صورة من عالمنا، عالم الذين ينتجون حياتهم ويتصارعون ويتحاربون لتحقيق هذا الإنتاج. لعلها صورة من عالم آخر أو أخروي. وكي يعطي مروّه صورته لوناً من الحياة لجأ إلى الأمم المتحدة لتقيم العدل والسلام بين الأمم!! لم يفطن مروّه إلى أن الذين أسسوا الأمم المتحدة هم أولئك الذين خاضوا أشرس الحروب للسيطرة على العالم ، فكيف لهم أن ينقلبوا على أنفسهم ليقيموا السلم والعدل بين الأمم؟!! وهل لدى الأمم المتحدة وزارة حرب لتقيم العدل بين الأمم؟!

الذين انصرفوا لامتهان السياسة من خلال الأحزاب الشيوعية، بل وغيرها من الأحزاب، يخشون اليوم، وبعد انهيار الإتحاد السوفياتي على أيديهم هم دون غيرهم، يخشون من فقدان وظائفهم بعد أن كدحوا طويلاً فيها واكتسبوا دربتهم السياسية. لذلك، ولذلك فقط، يتجاهلون كليّاً كل التغيّرات النوعية التي حدثت في العالم في الربع الأخير من القرن الماضي وأزاحت العوالم الثلاث الموروثة من الحرب العالمية الثانية من على المسرح الدولي، وظلوا يرطنون بالشعارات القديمة وكأن شيئاً لم يكن، بل وأضافوا إليها بعض التوصيفات المختلفة لاصطناع الجديّة الكاذبة من مثل "الرأسمالية المتوحشة" و "العولمة الرأسمالية" و "المشاريع الإمبريالية" و "الغزو الثقافي" و "الدفاع عن الهوية" وما إلى ذلك من حذلقات جوفاء. ليَعِ هؤلاء السياسيون الذين فقدوا وظائفهم أن بضاعتهم القديمة لم تعد نافقة بل قد غدت سامة بعد إنقضاء مدة صلاحيتها. الرأسمالية انهارت وأعلنت وفاتها في (إعلان رامبوييه G5) 1975 وبوفاة الرأسمالية توفيت الإمبريالية وأعلنت الأمم المتحدة رسمياً وفاتها عام 1972 . لا يمكن للمتوفى أن يقوم بأية مشاريع ولذلك فالحديث عن "المشروع الأميركي في المنطقة" ليس أكثر من حديث إفك واستخدام المشروع المزعوم كفزّاعة لشعوب المنطقة؛ ومثله الحديث عن الغزو الثقافي حيث أن ثقافتنا الحديثة إنما هي الثقافة الغربية معربة؛ كما أن هوية الأمة غير قابلة للإلغاء بحال من الأحوال. أما الذين يقاومون العولمة فإنما هم، ودون أن يعوا، يحاربون حرب دونكيشوت لإعادة الحياة للنظام الرأسمالي؛ فالعولمة ليست إلاّ تفتيتاً للخلية الرأسمالية الإمبريالية، خلية النواة أو المركز وحوله المحيط أو الأطراف والتي هي البنية الوحيدة التي يحيا فيها النظام الرأسمالي . العولمة هي الصورة الحية لتفكك النظام الرأسمالي .

أقرأ "يجب أن نحاكم لينين" لمروّه جيداً فلا أحسب الكاتب إلا من الجناح اليميني في حزب المحافظين البريطاني وخاصة عندما يتحدث عن الديموقراطية والقمع الإيديولوجي وعن الفرد كبرغي في آله وعن دور النقابات. أحسب أن الكاتب لم يسبق له أن كان على اتصال بأي فرقة ماركسية وليس عضواً أمضى عمره في الحزب الشيوعي اللبناني ككريم مروّه.

(2)

ما يفاجئني حقاً اليوم هو أن الدكتور سمير أمين يؤكد (في لقاء له مع شبكة زد نت 31 يناير 03) على أنه ماركسي، بل وأنه جزؤ من الحركة الشيوعية!! سمير أمين الذي كان قد رفض الفلسفة الماركسية (الديالكتيك)، قانون التطور الإجتماعي، عام 1985 في كتابه (أزمة المجتمع العربي) واشتهر اسمه في الغرب كونه مرتداً على الماركسية وأسسها الرئيسة يعود اليوم وبعد عشرين عاماً ليعلن أنه ماركسي بل وشيوعي أيضاً. إنه لأمر مفاجئ حقاً ويبعث على الدهشة. من يرفض الديالكتيك الماركسي ويطعن فيه لا يمكن أن يكون له إبتداءً أدنى علاقة بماركس. إعلان ماركسيته وشيوعيته اليوم ليس صادقاً فأي استعراض أولي لنشاطاته الحالية ولأفكاره حول مختلف المسائل المتعلقة بالنظام الدولي القائم وبحركة تقدم المجتمعات تكذب هذا الإعلان تكذيباً بائناً ـ وهذا أمر لا يتعارض مع الإقرار بأن لسمير أمين إضاءات مميزة أنارت مناطق ظلت معتمة في الفكر الماركسي .

الشاب يوسف فيساريونوفتش جوغاتشفيلي (ستالين ـ 22 عاماً) كتب في العام 1901 تحت عنوان "الحزب الإشتراكي الديموقراطي الروسي وواجباته الملحة" ينتقد حزبه، حزب الإشتراكيين الديموقراطيين الروس، حزب بليخانوف ولينين، لتوجهه الفكري والدعوي إلى المثقفين الذين لا مصلحة لهم في الثورة الإشتراكية مهملاً العمال ذوي المصلحة الحقيقية بالثورة. في الحقيقة أن ذلك الخلل الذي انتقده ستالين مبكراً جداً ظل هو الخلل الأكبر في الحركة الشيوعية وهو ما انتهى بها إلى ما هي عليه اليوم. المثقفون، ورغم كل ما يقال عن المثقف العضوي، يظلون موئلاً لخيانة الثورة الإشتراكية إذ من الطبيعي أن يقاوم المثقفون تنازلهم عن ميزة التثاقف كمهنة ارتزاق، كما تقتضي الإشتراكية، بغير الإكراه. وليس أدل على ذلك من خيانة هؤلاء المثقفين، مثل نيقولاي بوخارين، للثورة الإشتراكية وقد اصطفوا بقوة وراء خروشتشوف وهو يرتد على اللينينية وعلى الماركسية طيلة توليه السلطة 1954 ـ 1964 وصفقوا له بحماس شديد في الوقت الذي كان مشروع لينين في الثورة الإشتراكية العالمية قد بدأ يسجل نجاحات لم تكن في الحسبان في الحرب العالمية الثانية وما بعدها، فالفضل في حماية البشرية جمعاء من الوقوع في براثن النازية يعود فقط، وكما يعترف أخصائيو الاستراتيجية الغربية، للمشروع اللينيني بقيادة ستالين .

فاجأ خروشتشوف قيادة الحزب وهيأته العامة في المؤتمر العام العشرين للحزب عام 1956 بفيض من الأكاذيب حول ممارسة ستالين لطقوس عبادة الفرد. لم يول الحزب الأهمية اللازمة لتلك الحملة الشعواء وأظهر استعداداً للتضحية بشخص ستالين رغم مآثره العظيمة من أجل تأمين سلامة تطور الثورة - ويجب ألا يغيب عن البال هنا أن خروشتشوف ومن موقعه كمسئول عن تنظيم الحزب بعد رحيل ستالين كان قد حشد أزلامه في المواقع القيادية في الحزب توطئة لاغتيال قيادته. كان على القيادة أن تُسكِت خروشتشوف وتطرده من قاعة المؤتمر ليس فقط بسبب أكاذيبه بل أيضاً بسبب مخالفته لأبسط قواعد نظام الحزب. تأخرت القيادة، المكتب السياسي، لأكثر من عام لتسحب عنه الثقة في حزيران 1957 فكان على خروشتشوف إثر ذلك أن يتنحى في الحال عن مركز الأمين العام إلا أن دَعِيّ الديموقراطية في المؤتمر العشرين استعان بالعسكر وقام بما يشبه الإنقلاب العسكري بتدبير من الماريشال جوكوف وانتهى الأمر إلى طرد جميع البلاشفة الذين سحبوا عنه الثقة من الحزب ومن القيادة. ومن السخرية حقاً أن خروشتشوف الذي نعى، كما ينعى شيوعيو البورجوازية الوضيعة اليوم، على عهد ستالين فقدان الديموقراطية قام بانقلاب عسكري للبقاء في القيادة بينما كان ستالين بالمقابل قد ألحّ على إعفائه من القيادة في المؤتمر التاسع عشر عام 1952. وما يزيد من مرارة السخرية هو أن مثقفي الأحزاب الشيوعية بمن فيهم القادة زادوا تصفيقاً لخروشتشوف وما كان ذلك لينمّ إلاّ عن خيانة للثورة أكثر منه عن جهل في أبسط قواعد الماركسية .

بالرغم من أن إدارة خروشتشوف كانت قد شكّلت بداية الطريق لانهيار المشروع اللينيني وأن هرطقاته المنقولة عن بيرنشتاين مثلت انحرافاً خطيراً عن السياسة اللينينية في عبور الإشتراكية، بالرغم من كل هذا فإن الشيوعيين من ذوي الأصول البورجوازية الوضيعة ليس فقط لم يعترضوا على الإنحراف بل هللوا له وصفقوا بحرارة لقائدهم "المنقذ" خروشتشوف!! هؤلاء "الشيوعيون" الذين هيمنوا على القيادات في الأحزاب الشيوعية عامة هم الذين تسببوا بانهيار الإتحاد السوفياتي وهم الذين ما زالوا يخنقون ماركس ولينين كيلا تنكشف خيانتهم للإنسانية جمعاء وليس للمشروع اللينيني فقط . ما زال هؤلاء يدافعون، أو يسكتون على الأقل، عن تلك الخيانة التاريخية التي لا توازيها خيانة أخرى في تاريخ البشرية. نحن لا نظلم هؤلاء "الماركسيين الشيوعيين "ذوي الجلود البورجوازية الوضيعة طالما أنهم لم يعتذروا عن خيانتهم، بل وبحرص بالغ يسكتون سكوتاً مطبقاً يثير الشبهات عما إقترفه قائدهم الرمز خروشتشوف من خيانة للماركسية اللينينية.

استولت هرطقات خروشتشوف على "الماركسي الشيوعي" سمير أمين. بل إنه بزّ خروشتشوف في موضوع "اشتراكية" الفلاحين(!!) فعزا انهيار مشروع لينين إلى الإصلاح الزراعي الذي قام به الحزب بقيادة ستالين عام 1929 ثم أدار الأسطوانة الغربية المشروخة إياها حول دكتاتورية ستالين والبيروقراطية؛ وذهب بعيداً فطعن في الديالكتيك الماركسي وعاب على لينين استعجاله الإشتراكية في روسيا المتخلفة. اليوم يأتي أمين بنظرية جديدة -

ولدى سمير أمين هواية جامحة في صناعة النظريات ـ تقول أن المشروع اللينيني استنفذ حدوده وبالمثل ثورة التحرر الوطني. ما يثير أكثر من تساؤل إزّاء مثل هذا الإدعاء البورجوازي المشبوه هو كيف استنفذت ثورة أكتوبر الإشتراكية حدودها ولم تستنفذ الرأسمالية حدودها بل انبعثت من جديد في إطار العولمة كما يقول أمين نفسه!! ما هي الحدود التي وصلت إليها ثورة أكتوبر؟ هل نقلت روسيا إلى النظام الرأسمالي أم أنها وضعت الأساس لقيام النظام الرأسمالي؟ كان أمين قد أكد أن سبب فشل مشروع لينين هو الثورة الزراعية عام 1929 ومصادرة أراضي الكولاك ـ وهذا بالمناسبة إدعاء لنيقولاي بوخارين في بداية الثلاثينيات كما عاد خروشتشوف لنفس الإدعاء وقد أدّى هذا أخيراً إلى انهيار المشروع اللينيني ـ لكنه يعود اليوم ليدعي أن ثورة أكتوبر استنفذت حدودها وهو ما يعني أنها لم تفشل!! يبدو أن الدكتور سمير أمين لم يتعرف بعد على الإشتراكية الماركسية وقد غلبت عليه السياسة اليسارية الفرنسية. بل أكثر من ذلك فإنه يجهل طبيعة النظام الرأسمالي طالما أنه تحدث سابقاً عن رأسمالية الدولة في الإتحاد السوفياتيوهو يشارك اليوم بوريس يلتسن في الوهم أن تمليك مشاريع الدولة لأشخاص يعني بصورة آلية الإنتقال إلى النظام الرأسمالي!! تعب لينين وهو يكرر أن الإشتراكية إنما هي محو الطبقات أي إلغاء علاقات الإنتاج نهائياً من المجتمع ليس لإقامة علاقات أخرى غيرها بل للعبور إلى الشيوعية التي لا تعتبر نظاماً إجتماعياً بمعنى نظاماً ذا معايير وقوانين محدد . الشيوعية مجتمع بلا معايير وبلا قوانين فيه كل الحريات لكل الناس. الشيوعية هي الفردوس لكن على الأرض. ممتهنو اللعب بالسياسة يزعمون أن الإشتراكية هي نظام اجتماعي عادل مستقر وهذا تضليل واستغباء للناس ـ كل الإشتراكيين غير الشيوعيين هم كذبة مخادعون فليس هناك نظام اشتراكي. أما النظام الرأسمالي فهو بناء إجتماعي يستغرق بناؤه مئات السنين وتتكون حجارته من مصفوفات قيمية وثقافية وحقوقية تترافق مع عادات محددة في الإنتاج وفي الإستهلاك وإعادة الإنتاج. خيار النظام الرأسمالي أعدمته نهائياً البورجوازيات الروسية عندما رفعت السلاح بوجه البلاشفة عام 1918 ولن يبعث من جديد في حال من الأحوال حتى لو امتلك آلاف الروس مليارات الدولارات. ثم إن التاريخ ليس غرّاً ليسمح للروس ببناء النظام الرأسمالي بعد انهياره في مواطنه الأصلية!! وعلامَ استند أمين ليدعي أن ثورة التحرر الوطني استنفذت حدودها؟ ما الذي حققته ثورة التحرر الوطني؟ في كتابه (أزمة المجتمع العربي) ادّعى أمين أن البورجوازية الوطنية لم تقرر نهائياً فك الروابط مع مراكز الرأسمالية وخانت ثورتها ـ كيف لطبقة أن تخون ثورتها!! لا أحد يعلم إلا أمين ـ لكنه اليوم يتخلى عن فكرة الخيانة ليدعي أن ثورة التحرر الوطني استنفذت حدودها! إلى ما وصلت؟ لا أحد يعلم حتى ولا أمين! الحق أن مثل هذه الإدعاءات لا تعيب إلا مدّعيها. لو سلمنا بصحة مثل هذه النظريات الصغيرة المصطنعة لتوجب علينا أن نسلم لفكرة تقول أن "التاريخ مكتوب على الجبين!" لكن أمين لا يسلّم بذلك طالما أنه يناضل من أجل تحقيق مجتمع "العدالة الإجتماعية الديموقراطية" !! وكي أتحاشى الدخول في شرح يطول حول زيف نظام "العدالة الإجتماعية الديموقراطية" فإنني أتحدى أمين وغير أمين أن يحدد علاقات الإنتاج في هكذا نظام .

كون أمين رجل ثقافة غزيرة لا يعني على الإطلاق أنه ماركسي وشيوعي كما أعلن. فهو ينشط اليوم نظرياً وعملياً لإقامة "النظام البديل" (Alternative) وعالم مختلف تسوده "العدالة الإجتماعية الديموقراطية" وعولمة إنسانية تشمل مجموعات مناطقية؛ ويقوم على تحقيق كل هذا جبهة تضم قوى متباينة التوجهات كالتيارات السياسية والعقائدية التي تقاوم الليبرالية الجديدة والحركات النسوية والخضر وأنصار البيئة!!

أي ماركسي لديه أدنى إلمام بالماركسية يدرك تماماً أن مشروع أمين هذا ليس له أي علاقة بالماركسية. هذا مشروع بورجوازي تكلم عنه ليبراليو الثورة الفرنسية قبل أكثر من قرنين. ماركس تحدث عن ثورة تقوم بها البروليتاريا (يا عمال العالم اتحدوا!) لإقامة دولة دكتاتورية البروليتاريا من أجل محو الطبقات وإقامة الحياة الشيوعية. العبارات التي استخدمها أمين في التنظير لمشروعه الجديد تدل مباشرة على أن السيد أمين نفسه لا يعرف طبيعة المشروع الذي يدعو لبنائه، لذلك يقول "البديل" و "عالم مختلف "بقصد تحاشي استخدام تعبير "الطريق الثالث" فيتماثل مع بلير وكلنتون وأمثالهما. غير أن "البديل" و "عالم مختلف" و "الطريق الثالث" هي أسماء لما لا إسم له! كما يلاحظ أن أمين لم يدع البروليتاريا إلى الإنضمام إلى جبهته المكلفة بإقامة "البديل" مما يؤكد أن لا علاقة لمشروعه بماركس.

ويدهشنا أكثر عندما يقول أن "البديل" اسمه "الإشتراكية"!! نعود لنؤكد مرة ثانية وثالثة بل والألف أن الإشتراكية ليست نظاما إجتماعياً بحال من الأحوال. إنها في الحقيقة اللانظام حيث لا يتواجد فيها علاقات إنتاج ثابتة وهي مرحلة لا تستغرق أكثر من 30 عاماً في أكثر البلدان تخلفاً تسعى خلالها دولة دكتاتورية البروليتاريا إلى تحطيم وإلغاء كل علاقات للإنتاج دون أن تقيم بديلاً لها؛ إنها حقاً اللانظام وهي البرزخ للعبور إلى الشيوعية. هكذا قال ماركس، وأتحدى كل الإشتراكيين أن يقولوا غير ذلك!! أما أن يأتي الدكتور سمير أمين بفرق شتّى من البورجوازية الوضيعة مثل أنصار البيئة وأنصار المرأة ومناهضي العولمة من أجل تحقيق مشروع هم لا يعرفون هويته فهذا أمر لن يأتي بشيء ولن يتجاوز حد إعلان لبيان سياسي.

الطاعون القاتل المتفشي بدرجة مرعبة بين الماركسيين هو "التسيّس" أي إنقلاب الماركسي إلى مجرد سياسي يمتهن العمل في السياسة. لا يميّز هؤلاء الذين امتهنوا السياسة من الماركسيين أن ثمة إختلافاً نوعياً بين الماركسي من جهة والسياسي من جهة أخرى بل إن الماركسي يبلى في تابوت السياسة. السياسة هي مجرد أداة من أدوات الصراع الطبقي العديدة؛ هناك ماركسيون لا يشتغلون في السياسة على الإطلاق؛ وفي الحياة الشيوعية التي بشر بها ماركس حيث كل الناس شيوعيون لا أحد يشتغل في السياسة أو يتحدث بها على الإطلاق وذلك بسبب انعدام الصراع الطبقي وانعدام الدولة بالتالي. الماركسيون الذين إنقلبوا إلى سياسيين لم يعودوا ماركسيين على الإطلاق ولذلك تجدهم غير قادرين على قراءة تاريخ المشروع اللينيني أو التجربة الإشتراكية السوفياتية قراءة صحيحة وغير قادرين بالتالي على نقد التجربة السوفياتية. عبثاً يحدثنا هؤلاء في السياسة بعد أن إنقلبوا على ماركس وفشلوا في

قراءة التجربة الإشتراكية السوفياتية. يزعم هؤلاء أن مشروع لينين للثورة الإشتراكية العالمية بدءاً من روسيا كان محكوماً بالفشل منذ البداية ويقول بعض هؤلاء، ومنهم سمير أمين، أن الثورة الزراعية التي قام بها ستالين عام 1929 كانت السبب في إفشال التجربة السوفياتية، كما يجمع هؤلاء وأولئك على أن غياب الديموقراطية كان السبب المباشر في انهيار المشروع. كل هذه القراءات هي قراءات سياسية بورجوازية تغيب فيها روح الصراع الطبقي. التاريخ امتحن مشروع لينين بقساوة بالغة الشدة ومع ذلك عبر كل الامتحانات بنجاح باهر، من الحرب الأهلية وحروب التدخل 1918 - 1921 إلى سياسة النيب والانتعاش الاقتصادي 1922 - 1926 إلى الثورة الزراعية 1929 - 1931 إلى التصنيع الكثيف 1928 - 1938 إلى الإنتصار الباهر على النازية 1941 - 1945 إلى إعادة البناء وتجاوز أوروبا الغربية الأقل تضرراً 1946 - 1951. لا يجوز بعد كل هذه الامتحانات العسيرة والقاسية أن نشكك بقابلية المشروع اللينيني للحياة طالما أن التكرار يعلم الحمار كما يقول المثل الشعبي. لو لم يقِم ستالين مجمّعاً عملاقاً للصناعات العسكرية حال عودته من بوتسدام 1945 ثم مات مبكراً أو أغتيل عام 1953 لما انتهى المشروع اللينيني إلى ما انتهى إليه. ظهر هذا المجمع العملاق أقوى من الحزب بعد رحيل ستالين فعزل مالنكوف من القيادة وأتى بخروشتشوف عام 1954 وعزل جميع البلاشفة من قيادة الحزب لصالح خروشتشوف 1957 وأطاح بخروشتشوف نفسه لصالح مروّج السلاح بريجينيف عام 1964 وأطاح بالحزب وبغورباتشوف عام 1991 وأتى بيلتسن الذي قام بتفكيك الإتحاد السوفياتي وتهديم ما تبقى من مشروع لينين فوق الأرض، وما زال هذا المجمع الصناعي العسكري يمسك بكل السلطة في روسيا الإتحادية حتى اليوم، ولذلك لا تصادق روسيا من الدول اليوم إلا تلك التي تشتري منها الأسلحة مثل إيران وسوريا !!

السياسي سمير أمين يجافي كل منطق ماركسي حين يقول أن مشروعه للتغيير "العدالة الإجتماعية" يتطلب ديموقراطية حقيقية. والسؤال الذي لن يستطيع أمين الإجابة عليه هو .. ما هي الميكانزمات التي تقيم الديموقراطية في أي مجتمع؟ هل الديموقراطية تسبق التغيير أم التغيير يسبق الديموقراطية؟ وما حاجة الناس للتغيير إذا ما كان لديهم ديموقراطية؟؟ وهل تنبت عوامل التغيير في مناخ الديموقراطية ؟؟ يجتر السياسيون مفهوماً خاطئاً للديموقراطية فيفهمونها على أنها مجموعة الحريات العامة كحرية القول وحرية المعتقد وحرية النشر وحرية التنظيم وما إلى ذلك، لكن هل تشكل هذه الحريات الميكانزمات القادرة على تنظيم المجتمع؟؟ أم أن وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج (وسائل العيش) هي ما ينظم المجتمع وينتظم حياة الناس؟؟ وإذا كانت هذه الأخيرة هو ما ينتظم حياة الناس فلماذا لا تحدد هذه الميكانزمات مصفوفة الحريات الملائمة لها والتي تفسح المجال لتطورها؟؟ ينسى هؤلاء السياسيون أن ضرورة البقاء المعتمدة على ضرورة الإنتاج تسبق كافة الضرورات الأخرى. من المعيب حقاً أن أناساً يدعون الماركسية ويظلون مع ذلك أسرى قيود المثالية فيتهيأ لهم أنهم قادرون على تحقيق النظام السياسي أو الإجتماعي الذي يرتؤون!! هم يجهلون أن خيارات الإنسان مهما كانت قدراته تظل محددة بالظروف السائدة .

ما سرني فعلاً من الأفكار الحديثة للدكتور سمير أمين هو أنه الماركسي الوحيد الذي وافقني على أن النظام الرأسمالي لا يمكن له أن يستمر في الحياة في غير بنية خلوية لها نواة وهي المركز المتروبول الإمبريالي ولها محيط وهو البلدان التابعة للمركز. لكن بدل أن يصل إلى ما توصلت إليه في اعتبار العولمة انهياراً حقيقياً للنظام الرأسمالي في العالم كله وقد كفت مراكزه الكلاسيكية عن أن تكون مراكز إنتاج وتحولت إلى مراكز استهلاك ، بدل أن يصل إلى مثل هذه النتيجة الواضحة تعثر فادّعي تارة أن العولمة إنما هي تجديد لحياة النظام الرأسمالي وتارة أخرى اضطر إلى الإعتراف إلى أن ماكينة النظام الرأسمالي لم تعد تعمل وهو ما سماه بالإنجليزية (Obsolescent Capitalism) وترجمته الحرفية "الرأسمالية المهجورة". ويظهر أن ما اضطر الدكتور أمين إلى ابتسار مثل هذا الإسم ـ الذي لا يعمل أيضاً ـ هو افتراضه أن ليس بعد النظام الرأسمالي إلا النظام الإشتراكي ـ طالما أنه يعتبر الإشتراكية نظاماً اجتماعياً مستقراً ـ لكن النظام الماثل اليوم ليس هو النظام الإشتراكي بالتأكيد وليس هو النظام الرأسمالي الكلاسيكي المعروف، لذلك سماه الرأسمالية المهجورة أو الخربة. ومرة أخرى يقوم سؤال لا يستطيع سمير أمين الإجابة عليه وهو .. لماذا الناس بحاجة لنظام لا يعمل أو مهجور (obsolescent) كما وصفه؟ في مواجهة هذا السؤال يعاند أمين ويكابر معترفاً أن ليس لديه حتى الآن الإجابة وسيبحث عنها في المستقبل. والحق أنه لن يجدها على الإطلاق وكان عليه أن يقر بأن النظام الرأسمالي لم يعد موجوداً .

ما يفتقده "الماركسيون" بصورة عامة من ماركس هو الفلسفة المادية والمنطلق الذي يحدد صحة المسار. المنطلق الأولي لماركس في بحثه السياسي أو الإقتصادي أو الإجتماعي كان دائما أسلوب الإنتاج السائد أو قوى الإنتاج ومنها أدوات الإنتاج. انطلق أمين من مكان آخر ولم يلقِ بالاً لقوى الإنتاج وأدوات الإنتاج السائدة اليوم. ولو فعل ذلك لوجد أن وسائل الإنتاج السائدة اليوم هي وسائل ليست رأسمالية حيث أن الإنتاج بمجمله في الدول الرأسمالية سابقاً لم يعد إنتاجاً رأسمالياً. حوالي 75% من مجمله هو من الخدمات بأنواعها. وسائل إنتاج الخدمات ليست من الوسائل الرأسمالية حيث يتم إنتاج الخدمات بدون عمال بروليتاريا وبدون رأسمال وبدون أدوات إنتاج أو مصانع وبدون مواد خام . انهيار النظام الرأسمالي تجسد في العولمة التي تفتقد الرافعة القادرة على إقامة نظام عالمي مكتمل القسمات. ما نراه اليوم هو اللانظام غير القابل للحياة (Inviable) أو الفوضى (Anarchy). إزّاء هذا يترتب على الماركسيين دون غيرهم ألاّ ينقلبوا إلى مثاليين فيقترحوا على الناس مشاريع وهمية وغرّارة كما يفعل السيد أمين في مشروعه "العدالة الإجتماعية الديموقراطية" وكثيرون غيره يقترحون "مشروعاً قومياً نهضوياً" . عليهم أن يعودوا إلى ماركس كي يستطيعوا الكشف عن قوى الإنتاج الفاعلة اليوم والتأشير إلى المعالجات الممكنة نحو تصويب مسار التاريخ وتصحيح العلّة.

أحرص دائماً على قراءة الدكتور سمير أمين ليس لأنه مرجعية ماركسية كما يقول معارفه ومريدوه - ولي تحفظ قوي على ذلك بل وأعتبره من يلقي براية الماركسية في الوحول - بل لأنه يثير دائماً قضايا جديدة ومهمة في الماركسية كما في علوم الإقتصاد السياسي تستحق الوقوف عندها طويلاً والتفكير بها مليّاً. وعلي هنا أن أعترف بأنني قد استفدت كثيراً من قراءته طيلة ربع قرن تقريباً. ما يعيب مواقف أمين النظرية هو أنه غالباً ما ينزلق نحو المثالية وليس أدل على ذلك من أن لديه اليوم " خياراً " يسقط كل الشروط ليقول ب .. "الإنتقال الطويل من الرأسمالية العالمية إلى الاشتراكية العالمية" ؛ وغالباً ما يطرح القضايا من فوق، بدءاً من العلاقات السياسية التي يقررها أصحابها وليس من الواقع الذي يقرر مثل هذه العلاقات ولهذا تراه كثيراً ليبرالياً. وكلا العيبين يأسرانه بسبب تسارعه إلى الأمام، وهو ذات العيب الذي رآه في الثورات الكبرى، فيحلم في أن تتحقق الثورة الإشتراكية العالمية ويرى ذلك على الأرض قبل أن ينتهي عمره، وهو ذات التسارع الذي دفع بالمفكر الفرنسي روجيه غارودي وهو الماركسي والأستاذ في الفلسفة المادية لأن يكون مسيحياً يشكل منظمة مسيحية اشتراكية وثورية شارك بعض أعضائها في حرب أيلول 1 بجانب الفدائيين ضد الجيش الأردني، ثم إعلان إسلامه فيما بعد علّه يجتذب المتطرفين الإسلاميين إلى جانبه في مقارعة الإمبريالية الأمريكية - ومثله اليوم يكرس الدكتور سمير أمين كل وقته لمقارعة الإمبريالية الأميركية كما يراها.

من باب ضبط مثالية أمين وليبراليته وتسرعه أجدني مدعواً إلى الإشارة إلى ما أختلف فيه مع "الماركسي" و "الشيوعي " سمير أمين منطلقاً من قوانين العلوم الماركسية التي يعلن أمين مع بعض الاستحياء عن تقادم بعضها . في مقالته بعنوان "الأسباب الموضوعية لفشل الثورات الاشتراكية الأولى"، من منشورات منتدى العالم الثالث، أختلف مع أمين في عشرين نقطة أو أكثر أتعرض فيما يلي إلى المهم منها..

1. الثورة الكبرى والثورة العادية

ميّز أمين بين الثورة الكبرى والثورة العادية فقال أن الثورة الكبرى هي التي تسارع فتسبق الزمن ولذلك تفشل والثورة العادية هي تلك التي تتقيد ببرنامجها المطروح على جدول أعمال اللحظة. إن أحداً من علماء الإقتصاد السياسي لم يشارك أمين في مثل هذا التمييز. فما اتفق عليه هؤلاء العلماء أن الثورة الكبرى هي التي تؤذن بنظام إجتماعي جديد سيسود في العالم مقتلعاً النظام القديم بمختلف عناصره ومثله، مثل الثورة الفرنسية التي أذنت بقدوم النظام البورجوازي الرأسمالي واقتلاع النظام الإقطاعي، ومثل الثورة البولشفية التي أذنت بقدوم النظام الاشتراكي الشيوعي واقتلاع النظام الرأسمالي؛ ولذلك هما حقاً ثورتان كبريان. أما الثورة الصينية بكل عظمتها واتساعها فلم تأذن بجديد حيث سبقتها ثورة أكتوبر البلشفية ولولا وجود الاتحاد السوفياتي لما نجحت الثورة الصينية ولما قامت أصلا، وعليه لا يمكن إطلاق صفة الكبرى عليها مثلما وصفها أمين .

2 . تسارع الثورة البلشفية

ما يراه الدكتور سمير أمين تسارعا للثورات الكبرى يجلب لها انهياراً أراه عكس ذلك تماماً فالثورات التي عرفتها البشرية حتى اليوم تتمثل بتحالف طبقي يثور على الأوضاع القائمة ويلغي الطبقة الحاكمة؛ ومباشرة بعد ذلك تنفجر تناقضات أخرى بين الطبقات المتحالفة ويحتد الصراع بينها وهو ما يؤجل تحقيق أهداف الثورة وقد يلغيها مؤقتا؛ هذا ما حدث في الثورتين الكبريين الفرنسية والبلشفية. فكرة تسارع الثورات الكبرى تتجاهل تماماً الصراع الطبقي وهو العامل الأول والأخير في تناوب الأحداث الاجتماعية. الثورة البورجوازية في روسيا (شباط 1917) قامت على تحالف بين البورجوازية والعمال والفلاحين والمثقفين. في صبيحة إسقاط القيصرية نشطت تناقضات جديدة بين الطبقات التي قامت بالثورة. وثورة أكتوبر بدأت كانتفاضة قام بها البلاشفة لكن فئات عريضة من البورجوازية ذاتها أيدتها بهدف تسريع تحقيق أهداف الثورة في السلام والأرض إلا أن انفجار التناقضات بين البورجوازية والفلاحين الأغنياء من جهة والعمال والفلاحين الفقراء من جهة أخرى حول انتفاضة أكتوبر إلى ثورة اشتراكية كبرى. الحرب الأهلية وحروب التدخل والسياسة الاقتصادية الجديدة [NEP] التي اقتضتها تلك الحروب بالإضافة إلى الحرب العالمية الأولى أعاقت حركة الثورة إلى الأمام . ثم قام الفلاحون بحرب اقتصادية ضد الثورة وتلا ذلك الحرب المصيرية ضد العدوان النازي كل ذلك أعاق الثورة عن تحقيق أهدافها إعاقة شبه تامة. فعن أي تسارع يتحدث أمين؟ كثيرون يتهمون الحزب الشيوعي بتسرعه في تطبيق الفلاحة التعاونية لكن وقوف الاتحاد السوفياتي بثبات منقطع النظير بوجه الغزو الهتلري الواسع أثبت بطلان تلك الاتهامات إذ قام الفلاحون التعاونيون بقسطهم الكامل في تموين الجبهات الحربية والجبهة الداخلية وبشكل أفضل مما قام به القطاع الزراعي في بلدان أوروبا الغربية .

3 . الاشتراكية المثالية

يقول الدكتور أمين .. "إنَّ فهم البعد الهائل لهذا الواقع الإمبريالي، واستخلاص المسائل الإستراتيجية المتعلقة بتغيير العالم، تبعاً لهذا الفهم، يشكل ضرورة لا حياد عنها لكل القوى الاجتماعية والسياسية ضحايا توسع الرأسمالية، في مراكزها كما في أطرافها". يمتطي الدكتور أمين براق المثالية ويحلق في عليائها عندما يرى أن تغيير العالم يبدأ من فهم الواقع الإمبريالي واستخلاص المسائل الإستراتيجية وليس من التناقضات التي تفعل فعلها في الواقع وتحتّم الثورة في لحظة معينة دون استشارة المحللين والدارسين الاستراتيجيين . وأن يرى أمين كل القوى الاجتماعية والسياسية تنظر وترى الواقع من ذات الزاوية فذلك يعني أنه يطل من علياء المثالية. الطبقات العاملة لا ترى الرأسمالية كما يراها الفلاحون ففائض القيمة وفائض الإنتاج يتحققان فقط من دماء العمال وليس من الفلاحين بأي شكل من الأشكال. أما البورجوازية الوضيعة فتحلم دائماً بحصة أكبر من مجمل الإنتاج القومي الذي كدح في إنتاجه الفلاحون والعمال. ليس من طبقة ترى وحش الرأسمالية بذات الوحشية. العمال والفلاحون

والبورجوازية الوضيعة أيدوا ودعموا انتفاضة البلاشفة لغاية مختلفة لكل طبقة من هذه الطبقات المختلفة والمتناقضة.

العقبة الكأداء على طريق العمل الشيوعي هي أن الشيوعيين بالإجمال وأدعياء الماركسية لا يعرفون إطلاقاً أي ملمح من ملامح الاشتراكية ومع ذلك يدْعون إليها. الإشتراكية ليست نظاماً اجتماعياً أو اقتصادياً، بل ليست نظاماً على الإطلاق ؛ إنها فترة إعداد قصيرة للدخول إلى الشيوعية تقوم خلالها دولة دكتاتورية البروليتاريا بتحرير الإنسان من مختلف قيود الإنتاج القائمة وذلك بتحطيمها دون استبدالها بقيود إنتاج مختلفة. الشيوعية تعني إلغاء كل القيود والقوانين وحتى إلغاء الدولة. أن يعمل الدكتور سمير أمين في حركة ما يسمى بالعولمة الإنسانية التي تأخذ على عاتقها نقل العالم من العولمة الرأسمالية إلى العولمة الاشتراكية فما ذلك إلا تجارة المفلسين. إن أحداً من شذّاذ الآفاق من مختلف أطياف البورجوازية الوضيعة المعادين للعولمة الرأسمالية لا يريد أن ينتقل إلى الشيوعية. هؤلاء كالكلاب الجائعة تريد أن تلقي الرأسمالية إليها بعظام ليست جرداء تماماً والعولمة تحرم كلاب المراكز الرأسمالية من أية عظام.

4 . المراكز والأطراف

المفكرون الشرقيون بعامتهم، والدكتور سمير أمين أحدهم، زعلانون لأن الثورة الفرنسية وقعت في فرنسا وليس في القاهرة أو نيودلهي أو بكين وتعبيراً عن هذا الزعل يحتجون ضد المفكرين الغربيين، وكارل ماركس منهم، لاعتبارهم أوروبا الغربية تحديداً مركزاً يقود العالم إلى الحداثة. عيب على المفكرين أن يزعلوا من التاريخ، بل من يزعل من التاريخ ليس مفكراً على الإطلاق، ثم ليس لأحد من المفكرين الغربيين يد في قيام الثورة في فرنسا وليس في أي عاصمة أخرى. البورجوازية الفرنسية، يعضدها الفلاحون، هي التي سبقت إلى القيام بالثورة البورجوازية عام 1789 وفتحت الأبواب على مصاريعها في أوروبا الغربية لقيام النظام الرأسمالي. نظام الإنتاج الرأسمالي أسر انتباه العالم لخصوبة عطائه وكثرة إنتاجه فأخذ العالم يحث الخطى لتبني هذا النظام وهو أمر لا يتحقق إلا بمساعدة مراكز الرأسمالية في أوروبا الغربية وخاصة في إنكلترا وفرنسا. بحجة المساعدة امتدت الأذرع الانكليزية والفرنسية إلى مختلف بلدان العالم فكانت أذرعاً استعمارية تقوم بدور حيوي في نظام الإنتاج الرأسمالي. إن مركزية أوروبا في النظام الرأسمالي العالمي هي حقيقة لا تقبل المناقشة وليزعل من يزعل. الحقيقة الأخرى التي تترتب على هذه الحقيقة هي أن الثورة من أجل تفكيك النظام الرأسمالي لا بد أن تبدأ من مركزه، ليس لأنه المركز الذي يقود العالم ويتحكم به فقط، بل لأنه أيضاً الأسبق إلى التأزم فكل أزمة في نظام الإنتاج الرأسمالي تنعكس في المركز مباشرة وتبدأ منه. الزعلانون من مركزيّة أوروبا الغربية يقترحون اليوم بعد انهيار المعسكر الإشتراكي أن تقوم

الثورة في الأطراف لمحاصرة المركز وتفكيكه! مثل هؤلاء مثل الطبيب الذي يقترح معالجة ابن المريض لأجل شفاء المريض!! وما يزيد من غرابة هذا الاقتراح هو أن جميع من يقترحونه يؤكدون أن من أسباب انهيار الإتحاد السوفياتي كمركز للثورة الإشتراكية العالمية هو ما ورثه من تخلف روسيا القيصرية في الإنتاج الرأسمالي!! تقوم الثورة الإشتراكية فقط إنطلاقاً من متاريس البروليتاريا حصراً، إذ لا ثورة اشتراكية بدون بروليتاريا. هل يتواجد في الأطراف طبقة بروليتارية حقاً ؟

5 . البنية العالمية للثورة الإشتراكية

ليس إلا التسارع إلى الأمام ما جعل الدكتور سمير أمين، وهو "الضليع" في العلوم الماركسية، يزيح جانباً من طريقه السريع بعض الحقائق الجوهرية التي لا تقبل الإزاحة وأولها أو أهمها هي البنية العالمية للثورة الإشتراكية. في البيان الشيوعي 1847 اقترح ماركس وإنجلز أن تقوم الثورة الإشتراكية دفعة واحدة في العالم كله. اقتراحهما لم يأت من فراغ إذ كان ماركس قد أكد أن النظام الرأسمالي هو أول نظام إنتاج عالمي عرفته البشرية وعليه لا بد أن تكون الثورة لتفكيكه ثورة عالمية تبدأ من المركز. وفسر لينين تلك العالمية فقال بوجوب انطلاق الثورة من أحد المراكز وأن الثورة في الأطراف تأخذ طابع الوطنية فتفك الروابط مع المراكز الرأسمالية. ليس ثمة من شك في الوحدة العضوية للثورة لا يجوز تشطيرها كما طالب خروشتشوف في العام 59 وكما يطالب اليوم سمير أمين. الثورة وحدة عضوية واحدة ومن الطبيعي أن يحمي مركزها الأطراف، وقد فعل، وأن تحمي الأطراف المركز وهو ما لا يجوز لسمير أمين أن يستنكره بحال من الأحوال. التنكر للوحدة العضوية للثورة هو ما حدا بالدكتور أمين إلى الفصل بين بناء النظام الإجتماعي في الأطراف عنه في المركز. عجيب أن يصدر هذا عن أول من أشار إلى قانون " القطيعة الرأسمالية " وهو أمين نفسه. صحيح أن البورجوازية الوطنية تقوم بفك الروابط مع المركز الرأسمالي بهدف إقامة نظامها الرأسمالي الخاص بها لكن الدكتور أمين كان قد أكد لنا استحالة ذلك ولذلك ترتب على الدول التي فكت روابطها وتحررت أن تعتمد على المساعدة السوفياتية في بناء اقتصادها ومن هنا رأينا العديد من هذه الدول تعلن توجهاتها الاشتراكية. لا يمكن لأية قوى وطنية أن تبني اقتصادها القومي معتمدة على ذاتها. الاقتصادات المستقلة المعتمدة على الذات حكاية قديمة لا وجود لها منذ انفتاح العالم على النظام الرأسمالي قبل ثلاثة قرون . كان الخيار أمام القيادات البورجوازية الوطنية في الدول المستقلة إبّان ثورة التحرر الوطني 1946- 1972 هو إما الالتحاق بالبنية الإقتصادية الاشتراكية العالمية وإما بالبنية الرأسمالية ولم يكن هناك أي خيار آخر .

6 . الثورة الإشتراكية في المركز، موسكو

القول بمرجعية الدكتور سمير أمين في علم الماركسية يكذبه طرح سمير أمين في تطور التجربة الاشتراكية السوفياتية إذ يقول بانحرافها .. " لقد حضر هذا الانزلاق، في التخلي عن هدف الملكية الاجتماعية الذي يعرِّف شيوعية ماركس، وإبداله بالإدارة الدولتية المترافقة مع أفول الديمقراطية الشعبية التي خنقتها الديكتاتورية الفظة والدموية" . أول واجبات المرجعية الماركسية هو التخلي عن العبارات الغامضة أو الغائمة التي تنطوي على أكثر من معنى. لم يقل لنا أمين كيف ولماذا تم التخلي عن الملكية الاجتماعية وإبدالها بالإدارة الدولتية! ونسأل عن وظيفة دولة دكتاتورية البروليتاريا التي حصر بها ماركس عبور الاشتراكية؟ ولماذا افترضها ماركس دكتاتورية وليست ديموقراطية شعبية كما يفترض أمين؟ دولة الديموقراطية الشعبية لا تنحو منحى الإشتراكية على الإطلاق، وظيفتها هي المحافظة على مصالح كل الطبقات المتواجدة في المجتمع متعادلة. فكيف ينزلق الدكتور أمين وليس القيادة اللينينية-الستالينية ليقول بالشيوعية المترافقة مع الديموقراطية الشعبية، وهو قول يتنافى مع أبسط قوانين العلوم الماركسية التي تؤكد أن لا دولة على الإطلاق في الحياة الشيوعية بل ولا سياسة من أي نوع أو جنس في الحياة الشيوعية؛ تتلاشى فيها السياسة بكل مفرداتها وأولها الحرية والديموقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية ..الخ ..الخ . نعود هنا إلى المناقشة الحامية في المؤتمر العام العاشر للحزب الشيوعي البولشفي في العام 1921 وإلى الهجوم الذي شنّه لينين على تروتسكي والفوضويين في المؤتمر الذين طالبوا بأن يترك الحزب أمر بناء الإقتصاد للعمال من خلال تنظيماتهم النقابية من أجل أن يتفرغ الحزب للأمور السياسية وتطوير الثورة لتعبر الحدود إلى ألمانيا وأوروبا الغربية. أكد لينين أن مقترحات تروتسكي ورفاقه الفوضويين من شأنها أن تعزل الحزب عن جماهيره العمالية ولا تصل إلا لانهيار الثورة نفسها وليس إلى تطويرها، ولذلك طالب لينين بقيام الحزب مباشرة بتطوير الإقتصاد الإشتراكي في الاتحاد السوفياتي وهو ما من شأنه وحده أن يطور الثورة ويحفظ ديمومتها. ولم يبيّن لنا أمين كيف لدولة دكتاتورية البروليتاريا أن تقنع الطبقة الوسطى من فلاحين وإنتليجنسيا أن تتخلي عن وسائلها الخاصة بالإنتاج طوعاً بعد أن فشل البلاشفة، الذين أثبتوا قدرة على عبور أصعب الصعاب، في إقناعهم بذلك. والدولة هي، كما يعرف أمين، هيئة تشكلها الطبقة الحاكمة لقمع أعدائها وإخضاعهم، فليقل لنا ما هي حدود القمع المسموح بها لدولة دكتاتورية البروليتاريا !

أدعياء الماركسية يدّعون أن انهيار المشروع اللينيني كان بسبب إما غياب الديموقراطية والحكم الدكتاتوري، وإما التخلف الرأسمالي في مجتمع روسيا القيصرية (الحلقة الضعيفة)، وإما رأسمالية الدولة وغياب العدالة الإشتراكية، وإما تآمر الأعداء الخارجيين، وبعضهم يتحايل لأن يكون في الجانب الصحيح والمضمون ويريد أن يبعد نفسه عن وجع البحث الصعب والمعقد فيقول بسببها جميعاً. هكذا قال سمير أمين وقال غيره متزيين بزي الباحث المتخصص. مثل هؤلاء الأدعياء هم براء من كل أثر للماركسية حيث أن أحداً منهم لم يأت على ذكر الصراع الطبقي في المجتمع الاشتراكي السوفياتي. لا يجوز وصف الدولة السوفياتية بالقمع الدموي ما لم تكن تصارع عدواً في الداخل. وحتى إذا ما كانت تقتل الشيوعيين الحقيقيين، كما تشي أقوال بعض أدعياء الماركسية، فما ذلك إلا لأنها دولة الطبقة المعادية

للشيوعية. كثيراً ما أشار لينين، كما ستالين، إلى أن التخلص من الرأسماليين والإقطاعيين كان أمراً سهلاً، أما الصعوبة الكبرى التي تواجهها الثورة الإشتراكية فهي معركة التصفية ضد البورجوازية الوضيعة وهي البورجوازية التي تغلبت أخيراً على قوى البروليتاريا وحزبها الشيوعي وقوضت المشروع اللينيني بكل بنيانه. ولعلي أخيراً لا أكون مخطئاً إذا ما ادعيت انطلاقاً من قوانين المادية الديالكتيكية أن جميع أسباب الانهيار التي ادّعى بها أدعياء الماركسية كانت قد لعبت دوراً في تجديد حيوية المشروع اللينيني .

7 . دور العمل الوطني في الثورة الاشتراكية

من أغلظ المسامير التي دقها خروشتشوف في تابوت المشروع اللينيني هو سياسة الفصل بين الثورة الاشتراكية والثورة الوطنية التي كان من نتيجتها السماح لإسرائيل بإلحاق هزيمة قاسية بمشروع عبد الناصر التحرري. ليس من شك أن التناقض بين مراكز الرأسمالية الإمبريالية من جهة والدول المحيطية التابعة من جهة أخرى منعكساً في ثورة التحرر الوطني 1946-1972 قد أخذ يلعب الدور الرئيسي في تفكيك النظام الرأسمالي العالمي وليس مصادفة أن ينهار النظام الرأسمالي في السبعينيات بدءاً من انهيار الدولار في العام 1971. إن وقوف الإتحاد السوفياتي بكل قوته مع مصر في مواجهة العدوان الثلاثي في نوفمبر 1956 نجم عنه انهيار أكبر إمبراطوريتين استعماريتين هما بريطانيا وفرنسا. وأوشك العالم إذّاك أن يعلن النصر النهائي والحاسم للإشتراكية في مختلف أركانه لولا أن كلاب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي كانت قد عقرت الثورة في شباط 1956. لم يلاحظ سمير أمين المسمار الغليظ الذي دقه خروشتشوف في تابوت الثورة رغم كل الانتكاسات الثورية التي حصلت في الستينيات من أزمة الصواريخ إلى الإنقلابات العسكرية في إندونيسيا وغانا والعراق والجزائر والكونغو والسودان وسوريا وغيرها إلى هزيمة الثورة العربية 67، وها هو اليوم ينتقد الدولة السوفياتية كما القيادات الوطنية في العالم الثالث لأنها لم تفك الرباط فيما بينها. عجيب أمر هذا "الماركسي" الذي لا يدرك الوحدة العضوية للثورة بوجهيها الاشتراكي من جهة والوطني من جهة أخرى؛ كلاهما كانا ينشطان في تفكيك النظام الرأسمالي الإمبريالي العالمي .

8 . راهنية الثورة الاشتراكية

كتب الدكتور أمين يقول .. " بعد الإعتراف بخطأ لينين في تقديره للتحديات الواقعية ونضوج الشروط الثورية .. " . ونتساءل عمّن اعترف بخطأ لينين؟! طبعاً من اعترف ليسوا إلا أعداء

لينين ومشروعه الاشتراكي، وهم تحديداً من أدعياء الماركسية من البورجوازية الوضيعة، وهم منها براء . الجماهير العريضة من مختلف الطبقات الشعبية هي التي طالبت البلاشفة بالانتفاض في 25 أكتوبر 1917 من أجل استلام السلطة عوضاً عن الحكومة البورجوازية المؤقتة بقيادة الاشتراكيين الثوريين التي رفضت الخروج من الحرب والقيام بالإصلاح الزراعي الموعود. قام البلاشفة بانتفاضة بيضاء تماماً من أجل استكمال الثورة البورجوازية في روسيا كما كانت قد طالبتهم بذلك الأممية الثانية في مؤتمرها العام في بازل عام 1912. شكل لينين حكومة فيها نصيب غير قليل للبورجوازية. من قرر استحقاق الثورة الاشتراكية هو البورجوازية وليس لينين والبلاشفة. في مارس 1918 قامت البورجوازية مدعومة من قبل ملاك الأراضي الكبار وبقايا القيصرية بثورة مضادة توعدت بإبادة البلاشفة عن بكرة أبيهم. لم تنتهِ تلك الحرب الأهلية عام 1919 قبل أن تتم تصفية البورجوازية كطبقة ذات حصة في الإنتاج القومي. وتلا الحرب الأهلية حرب التدخل ضد الجيوش الأجنبية فكان الإنتصار الحاسم للبلاشفة وقد التف حولهم بقوة العمال وفقراء الفلاحين. لا البلاشفة ولا العمال ولا الفلاحين لديهم أدنى خبرة في بناء اقتصاد بورجوازي يقوم على قاعدة السوق، هذا إذا قبلوا بذلك . توجب على البلاشفة إذاك السير على طريق بناء الإشتراكية كخيار وحيد أمامهم. ثم لماذا يعتبر لينين مخطئاً وقد أخذ برأي كارل ماركس وفردريك إنجلز مجتمعين. ففي يونيو 1882 كتبا في مقدمة الترجمة الروسية للبيان الشيوعي يقولان أن الثورة الإشتراكية العالمية يمكن أن تبدأ من روسيا ثم تنتشر في باقي الأطراف الأوروبية . لينين بدأ الثورة الإشتراكية من روسيا وانتشرت الثورة فعلاً في ألمانيا والمجر وإحدى دول البلطيق، غير أن الرأسمالية الأوروبية جندت كل قوى القمع لديها وسحقت الثورات الاشتراكية الثلاث بوحشية فائقة. تجاوز الثورة الإشتراكية كل المصاعب والعقبات والمؤامرات ومنها المؤامرة الكبرى بتربية ألمانيا النازية ودفعها لمهاجمة الدولة الإشتراكية المسالمة، تجاوزها كل هذا ووصولها إلى الدرجات العليا على سلم البناء الإشتراكي قبل اقتحام خروشتشوف وقطعه لمسار تطورها يمنع على مختلف أدعياء الماركسية القول بعدم استحقاق الثورة وأن مواقيتها لم تحن بعد، أو حتى التعلل بتخلف روسيا القيصرية .

9 . شيوعية بدون بروليتاريا !!

أغرب أطروحة تطرحها المرجعية "الماركسية" في عالمنا العربي هي أن تكون هناك شيوعية لا تخص البروليتاريا وحدها. وهذا الطرح يتناسب مع ما يقوم به أمين من نشاط يصفه بالشيوعي(!) وهو تجميع شتى المنظمات المعارضة للعولمة ومختلف أصناف شذاذ الآفاق لتشكيل تيار قوي يجرف العولمة الرأسمالية ويستبدلها بما أخذ بعض الماركسيين المنكفئين يصفونه ب "العولمة الإنسانية" ! نسأل هؤلاء العولميين وعلى رأسهم قائدهم "الماركسي" سمير أمين؛ ما عساها تكون علاقات الإنتاج بعد عولمة العالم إنسانياً؟ أهي بورجوازية تقوم على اقتصاد السوق أم أنها شيوعية كما كنت قد ألمحت وليس هناك من طريق ثالث بعد أن فشل زعماؤه في التعرف عليه. اقتصاد السوق الرأسمالي عانت منه البشرية أشد المعاناة

طيلة القرون الثلاثة الأخيرة، أما الشيوعية فهي ليست من بنات أفكار ماركس، إنها نمط إنتاج مجتمعي (Associated Production) أخذت به الرأسمالية وعممته. اليوم ولأسباب كنا شرحناها طويلاً سابقاً تراجع النمط الرأسمالي القائم على الإنتاج المجتمعي وتفشى عوضاً عنه الأسلوب الفردي في الإنتاج (Individual Production) وهو أسلوب الطبقة الوسطى. الشيوعية لم تعد واردة في ظل الإنتاج الفردي. ليس ماركسياً من يدعو إلى الشيوعية في ظل الإنتاج الفردي. لقد غدا الدور الوحيد للماركسي الحقيقي هو الدعوة إلى تحطيم الطبقة الوسطى ووسيلتها الفردية في الإنتاج التي ما كانت لتتفشّى إلا في ظل الإقتصاد الاستهلاكي (Consumerism) وهو الإقتصاد الممانع لكل أنماط التنمية والمعادي للإنسانية . ومن أغرب الدعوات التي يدعو إليها "الماركسي" سمير أمين هي العالم الشيوعي متعدد الأقطاب !!! يا للمهزلة يا معلمنا، كارل ماركس!!!

(3)

كنت أملت أن اللغة خانت كبير الماركسيين العرب، كما وُصف دائماً محمود أمين العالم ، حين قال لإحدى الجرائد السعودية (اليمامة) يعرّف الليبراليين الجدد بأنهم الذين .. " تخلّوا عن أفكار وإيديولوجيات سابقة بعد تجارب فكرية وسياسية ونضالية فاشلة كالشيوعية والماركسية والإشتراكية والقومية والبعثية والصحوة الإسلامية وغير ذلك " . لكنني ومن متابعة آخر أنشطة العالم الفكرية تبيّن لي بكل وضوح أنه إنما كان يعبّر عن نفسه كليبرالي مستجد تخلّى عن إيديولوجية فاشلة، حد قوله، هي الماركسية الإشتراكية أو الشيوعية. نعم، المرجع العربي التقليدي في الماركسية، محمود أمين العالم، تخلى عن ماركسيته الفاشلة، كما وصفها، وأصبح ليبرالياً جديداً. والعالِم لا يخجل من هذا التحول فقد أكده إلى صحيفة العربي الناصرية قائلاً .."أنا لست ماركسياً"!! وكنت اجتهدت حينذاك أيضاً لأن أفسر قوله هذا تقليداً لماركس حين قال .. "أنا لست ماركسياً" على اعتبار أن الشيء ليس هو نفسه بذات اللحظة وقد غيرته الحركة التي لا تتوقف أبداً داخله، إلا أن تفسيري قد تبيّن فيما بعد أنه كان تبريرياً، فمحمود أمين العالم لم يعد ماركسياً، كما أكد، بل أصبح ليبرالياً مستجداً كما وصف .

لقد تخلى محمود أمين العالم عن مشروعه الشيوعي "الفاشل" ليبحث عن مشروع ليبرالي فكتب مقترحاً .. " تشكيل برلمان أو جبهة للمثقفين العرب يضم مختلف انتماءاتهم السياسية والفكرية والإجتماعية وكفاءاتهم العلمية والعملية على نحو ديموقراطي للمساهمة في اقتراح صياغة عقد اجتماعي قومي جديد موحد يكون مرجعيتنا في المرحلة الراهنة فضلاً عن وضع مشروع تنموي إنتاجي عقلاني علمي ديموقراطي شامل لأمتنا العربية يراعي ما بين مجتمعاتنا من تباين في الظروف وتفاوت في المستويات، مشروع قومي عملي يقدم بدائل وحلولاً للقضايا القومية المختلفة لا مجرد شعارات مجردة تعبوية، على أن تشارك مختلف القوى المنتجة والمبدعة والحية في المجتمعات العربية في مناقشته وإغنائه والسعي من أجل

تبنيه وتنفيذه عملياً" - لم يتخلَّ محمود عن الماركسية فقط بل أصبح بحاجة لمن يقوده، لمن يؤشر له المسار!! إنه يستبدل اليوم الحزب الشيوعي بنادي للمثقفين!! ليس لنا إزّاء هذه الحالة البائسة إلا أن نعبّر عن إشفاقنا العميق على من شغل لفترة طويلة مركز الأمين العام للحزب الشيوعي المصري بالقول .. مسكين محمود أمين العالِم الذي لم يعد يعرف أين المسار!!

ها هو قد انقلب إلى مثالي صرف، لا يوازيه في المثالية سوى يوحنا اللاهوتي في رؤياه وقد رأى مملكة في السماء لا تعمل بالقوانين الأرضية! يداهمني الحزن والأسى الشديدين حين أرى من تعلمنا من كتاباته قبل نحو ستين عاماً المبادئ الأولى للماركسية وكان المرجعية الأولى في الماركسية في عالمنا العربي يطلّق مرجعيته باحثاً عن ليبرالي أو قومي أو بعثي أو إسلامي كي يبني مشروعا فكرياً جديداً يكون مرجعية له بعد أن ألقى براية الماركسية في الوحول القذرة. لئن حافظ سمير أمين على إعلان نفسه ماركسياً وشيوعياً فإن محمود أمين العالم تجاوزه في التجدد والتموّض فأخذ يعلن أنه ليس ماركسياً وأنه أصبح ليبرالياً بعد أن ثبت له "فشل تجربته النضالية الماركسية الإشتراكية الشيوعية". أنا لا أعلم إذا كان العالِم قد انضم إلى المؤتمر القومي العربي الإسلامي في بيروت أو أن هيئة المؤتمر تجاهلته ولم تدعه للإنضمام إليها مع أن البرلمان، برلمان المثقفين، الذي يدعو العالِم إلى تأسيسه، وقد أصبح قضيته الكبرى، لا يختلف بالشكل وبالمحتوى عن المؤتمر القومي العربي الإسلامي في بيروت. ولعله أقتنع بالبيان الصادر عن ذلك المؤتمر في حزيران 2005 فاعتبره مرجعيته بدل الماركسية "الفاشلة" وانطلق يدعو إلى الوقوف جبهة واحدة في وجه العدو الإسرائيلي والحفاظ على طهارة القرآن الكريم وعدم السماح للصهاينة بتدنيسه، ثم دعم "المقاومة" العراقية في جهادها لطرد الإحتلال من العراق والوقوف وراء حزب الله في لبنان - لئن خاضت البورجوازية الوضيعة صراعاً طبقياً مريراً ضد البروليتاريا السوفياتية وحققت بالتالي نصراً تاريخياً تمثل بانهيار مشروع لينين العظيم فلماذا لا يفلح القوميون والإسلاميون بتضليل العالِم؟! وما يستثير الشفقة أكثر على العالِم هو أن الذين ضللوه اليوم لم يستطيعوا تضليله يوم كان لهم مشروع حقيقي على الأرض. القوميون والإسلاميون فقدوا كل الفرص لاحتفاظهم بمهنة العمل في السياسة حال انهيار مشروعهم الوطني مع بداية الإنهيار السوفياتي، أصبحوا عاطلين عن العمل تماماً بعد أن فقدوا كل مهنة أخرى ولم يعد الناس يصغون إلى خطاباتهم السقيمة الخشبية وهو ذات الخطاب الذي يتبناه العالِم اليوم ويعتبره مرجعيته الراهنة دون أن يلتفت إلى أن هذا الخطاب لم يعد يؤمّن لأصحابه أية وظيفة سياسية.

إنني وبكل الصدق أشعر بالحرج الشديد وأنا أتهم محمود أمين العالم بعد أن كان المناضل الماركسي الشيوعي الصلب الذي واجه أقسى المحن والصعوبات طيلة حياته النضالية وقد امتدت عقوداً، أتهمه بالرياء والنفاق. وإلا فكيف لمحمود وبعد أن تفقّه في العلوم الماركسية أن يطالب بكتابة "عقد إجتماعي تنموي جديد" للشعوب العربية يراعي التباينات فيما بينها ويضمها إلى بعض في وحدة واحدة!! يطالب بمثل هذا العقد دون أن يقول كلمة واحدة حول

علاقات الإنتاج فيما يدعو إليه من تعاقد. هو لم يقل لنا أن علاقات الإنتاج لم يعد لها قيمة فاعلة في العقود الإجتماعية، ونحن نقول له بالمقابل أن شبكة علاقات الإنتاج هي الشبكة القوية التي تحمل وحدها المجتمع، أي مجتمع وبكل أطيافه، كوحدة متفاعلة واحدة. علاقات الإنتاج، أي كيف يؤمن الناس رزقهم اليومي، هو ما يكتب كل العقود الإجتماعية. يقول العالِم أن الطلائعيين العرب من المثقفين بحاجة إلى صياغة مشروع يأخذ بيد الأمة نحو بناء مستقبلها تاركاً تحديد معالم المشروع لبرلمان المثقفين دون أن ينسى أن يتكرّم على قوى الإنتاج وقد طالب بإتاحة الفرصة (!!) لها في مناقشة المشروع - ليس في تصميمه! - ودون أن يتطرق إلى روافع المشروع. ما عساها تكون طبيعة تلك القوى التي ستقوم بتحقيق المشروع؟؟ لم يخبرنا العالِم!! هو افترض، كما يبدو، أن يقوم المثقفون مقام الأئمة، يؤمون بالناس يبشرونهم بالجنّة فيحتشد الناس وراءهم لبناء الفردوس الموعود !! تلك هي رؤيا العالِم اليوم وهي أشبه برؤيا يوحنا اللاهوتي!! يتساءل العالِم .. " لماذا لا يجتمع المثقفون ويتوحدون في أشكال متنوعة من خلال الجمعيات المدنية من أجل الضغط وخلق سلطة فاعلة حقيقية من أجل التغيير الإجتماعي في عالمنا العربي" - شعر العالِم أن تساؤله هذا جدير بالسخرية فسارع قائلاً .. "هذه دعوة ليست جديرة بالسخرية على الأقل" . أن يقوم المثقفون بانقلاب على السلطة وخلق سلطة بديلة تتكفل بالتغيير الإجتماعي في عالمنا العربي، كما رأى العالِم، ليس جديراً بالسخرية فقط، بل أكثر من ذلك فإنه يستحضر إلى الخاطر "إنقلابية" مشيل عفلق الشهيرة لدى تأسيس حزب البعث في نهاية الأربعينيات حيث أناط تحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية جميعها إلى أولئك الذين ينقلبون على ذواتهم بغض النظر عن الطبقة التي ينتمون إليها - ينقلب الرأسماليون على ذواتهم فيصطفوا مع العمال الذين انقلبوا على ذواتهم أيضاً فيتعاونوا متحدين في تحقيق الاشتراكية؟! وبالانقلابات أيضاً تتحقق الحرية والوحدة!! وهكذا فهم صغار العسكريين انقلابية عفلق على طريقتهم فتبعثنوا وقاموا بانقلابات عسكرية عديدة في سوريا والعراق وحققوا ما حققوا من انهيارات مروّعة في هذين البلدين اللذين ابتليا بالانقلابيين العفالقة.

لنفرض أن ما يطالب به العالِم اليوم قد تحقق فاستعاد الفلسطينيون كل فلسطين وشكلت حماس وفتح حكومة فلسطين الوقف، كما تمكنت ما تسمى زوراً بالمقاومة العراقية من هزيمة المحتلين وشكلت حكومتها برئاسة عزت الدوري نائب صدام، وأن الأقطار العربية اتحدت في فدرالية ونصبت خليفة عليها من سبط العلويين أو الهاشميين، لنفرض أن كل هذا، وهو الإطار العام لرؤيا العالِم والمؤتمر القومي الإسلامي، قد تحقق فعلاً، فماذا بعد؟!! ما الذي سيتغير في حياة العربي؟ ما بعد ذلك لن يكون إلا موت الفلسطيني جوعاً لأن الإتحاد الأوروبي والولايات المتحدة لن يموّلا الولاية الفلسطينية من الخلافة الفدرالية العربية؛ وسوف لن تستقبل أوروبا وكندا واستراليا المهاجرين العرب طالما أنهم مواطنو خلافة عظمى؛ وفي الولاية العراقية سيبز عزت الدوري صدام حسين في بناء القصور وتبذير الأموال وسيقيم تماثيل له في كل الشوارع والساحات بغض النظر عن طلعته غير البهية طالما أنه امتلك السلطة بقوة الإرهاب وليس عن طريق السرقة مثل صدام . ما الذي سيتغير على المواطن العربي؟!!

رغب العالِم في أن يكون أبعد نظراً من برلمان القوميين والإسلاميين العرب فطالب أن يتضمن العقد فصلاً إجتماعياً تنموياً. لكن، وطالما أن التنمية الإجتماعية لا تقع إلا على الأرض ووفق قوانينها، وليس قوانين السماء، فإن المطالبة لن تحقق شيئاً طالما أن القوانين الفاعلة في التنمية ظلت مجهولة وغير محددة ومعلومة. هل التنمية المطلوبة هي اشتراكية أم رأسمالية وما هي القوى التي من شأنها أن تحقق أياً منهما؟؟ لو أفصح العالِم عن طبيعة التنمية المطلوبة لوقع في ورطة لا فكاك منها، فإما أن تكون اشتراكية وقد أمست مستحيلة بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، كما أكد هو نفسه، وإما أن تكون رأسمالية وهو خيار يتوقف على موافقة الولايات المتحدة أولاً وأخيراً فالفدرالية العربية ليست أقوى وأهم من الصين وهي الدولة العظمى؛ وكل من الحالتين، الإشتراكية أو الرأسمالية، تعني طبقة من المجتمع دون الأخرى وهذا أمر له تداعياته الخطيرة. وفي اجتناب مثل هذه الورطة الصعبة كان المؤتمر القومي الإسلامي أبعد نظراً من العالِم!! وهو ما يضيرنا، للحق .

ومما يسترعي الإنتباه في أدبيات العالِم الحديثة هو تركيزه على وحدة "الأمة العربية" - من أخبر العالم أن العرب هم أمة واحدة؟ لا يمكن أن يكونوا أمة إلا إذا سبق في التاريخ وأن كانوا أمة بكل المعايير المعروفة. لم يسبق أن كان العرب أمة واحدة وليس أدل على ذلك من أن مشروع النهضة العربية الحديثة الذي صاغته البورجوازية الشامية بقيادة الشريف حسين بن علي في العام 1916، وهو أول وآخر مشروع قومي، قام على قاعدة وحدة المشرق العربي مستبعداً مصر وكل عرب أفريقيا، بل إن المستعمرين الإنجليز هم الذين أرغموا عرب المشرق على قبول مصر كقطر عربي عضواً في جامعة الدول العربية. وحدة الأمة لا تتم إلا في بوتقة نظام الإنتاج الرأسمالي، وهو النظام الذي لم يظهر في العالم العربي على الإطلاق. لم يتجاوز أحد من علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا الرائد الماركسي ستالين في تعريفه للأمة وتحديد ركائزها الأربعة المتمثلة بوحدة الأرض واللغة والإقتصاد والتكوين النفسي - وحدة الأرض لم تتحقق في العالم العربي قبل مائة عام. كانت الصحارى تفصل بين بلدانهم وهي أصعب على العبور من البحار. ولعلنا جميعاً نتفق على أنه لم يحدث عبر التاريخ أن جمعت أي قطرين عربيين وحدة إقتصادية طالما أن النظام البطريركي الريعي في الإمبراطوريات القديمة لم يوفر أي تفاعل إقتصادي بين الولايات المختلفة في الإمبراطورية. ولا يمكن الإدعاء بأن التكوين النفسي للقبائل السعودية هو نفسه لأهالي المدن اللبنانية أو السورية كبيروت ودمشق وحلب. واللغة العربية هي حديثة العهد في المغرب العربي ولم تصبح بعد لغة التخاطب لدى عموم المغاربة. فهل إصرار العالِم على الوحدة العربية هو من باب السياسة الشعبوية؟! ثم ماذا سيغنم العرب من الوحدة؟ ما اجتمع الضعيف مع الضعيف إلا وازدادا ضعفاً، والمثل الشعبي يقول ساخراً "عريان وقع على مصلّخ ".

ونقرأ العالم يكتب .. " الدولة ضرورة قومية في البلاد النامية كبلادنا بوجه خاص كأداة لتنميتها وتطويرها إنتاجياً وخدماتياً " .. يا للهول !! نرجو أن يسمح لنا المفكر الفيلسوف

محمود أمين العالم أن نؤكد له بأن من يتخلى عن الماركسية لن يعود قادراً على إنتاج أي فكر سياسي ذي قيمة. نحن نعارض العالِم هنا رأساً ومباشرة ونؤكد على أن الدولة في بلاد كبلادنا اليوم هي منظمة تعمل ضد الإنتاج وتطوير الإنتاج وضد قوى التقدم. فيما قبل سبعينيات القرن الماضي وعندما كانت تخوض بلادنا، كسائر بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ثورة التحرر الوطني وتوطيد الإستقلال كانت الدولة في هذه البلدان هي دولة البورجوازية الوطنية المعنية ببناء إقتصادها المستقل الخاص بها. كانت الدولة دولة الثورة وتعمل لتحقيق أهداف الثورة . أما فيما بعد السبعينيات وانهيار ثورة التحرر الوطني، تبعاً لتراجع الثورة الإشتراكية العالمية في الستينيات وما بعدها، لم تعد الدولة هي دولة الثورة بل غدت دولة الهزيمة. دولة السادات فيما بعد حرب 73 ليست مثل دولة عبد الناصر فيما بعد حرب 67، بل هي النقيض لها وقد أعلن ذلك السادات نفسه في خطابه الشهير حالما تحقق من الهزيمة في معركة الدبابات شرق القناة إذ قال .. " مصر لا تستطيع مواجهة الولايات المتحدة ". الدولة في عموم البلدان النامية بعد انهيار حركة التحرر الوطني غدت أسوأ منها في عهود التبعية المباشرة للإمبريالية. الدولة في بلادنا اليوم هي دائرة مغلقة (Closed Circle) بمعنى أن لا علاقة لها بمكونات المجتمع ولا تخص أياً من طبقاته ولذلك تميل جاهدة إلى منع تحقيق أي تنمية لأي من طبقات المجتمع لأن ذلك سيضر بمستقبلها طالما أن الطبقة القادرة المكتملة النمو هي التي تستولي دائماً على السلطة وعلى الدولة. لئن كانت الدولة التابعة للإمبريالية مقيدة بتحقيق معادل لفائض الإنتاج الوارد إليها من المتروبول فالدولة اليوم، فيما بعد انهيار الإستقلال، غير ملزمة بشيء سوى بتوليف الشروط التي تسمح بنهبها للثروة الوطنية. والهوية التي تؤهل الشخص إلى دخول دائرة الدولة المغلقة (العصابة) هي الفساد والإفساد ولا شيء غيرهما - يستطيع العالِم أن يتحقق مما نقول مباشرة فينظر إلى أحوال الإنتاج والخدمات في مصر اليوم وهي تدعو للرثاء بل وللقرف .

المشروع الملح اليوم في سياسات العالِم المستجدة هو مقاومة العولمة الأمريكية الرأسمالية! - ما هي العولمة؟ ولماذا هي أمريكية؟ ولماذا هي رأسمالية؟ تفسير ذلك يقع على عاتق المؤتمر القومي الإسلامي وليس على العالِم الذي للأسف لا يعلم بأن أولئك المؤتمرين تحت راية القومية والإسلام هم أكثر الناس إفلاساً في الفكر السياسي وهذا حقيقة تعرفها تماماً شعوبهم العربية المسلمة. ولعله من المفيد هنا أن نشير سلفاً إلى معارضة رئيس الولايات المتحدة الأميركية للعولمة. فقد بدأ بل كلنتون خطابه في مؤتمر منظمة التجارة العالمية في سياتل ديسمبر 1999 وهو يسمع من بعيد خارج القاعة صيحات المتظاهرين ضد العولمة، بدأ مخاطباً المؤتمرين .. "ولماذا تدهشون من الإعتراض على العولمة فأنا مثلهم (المتظاهرين) لدي اعتراضات كثيرة على العولمة" وقال أيضاً .. "أنا مسرور بوجود هؤلاء المتظاهرين حولكم فهم يمثلون الملايين والملايين من البشر متسائلين عما يمكن لمنظمتكم أن تجلبه للبشرية .. " . رئيس الولايات المتحدة الأميركية ينضم إلى المتظاهرين ضد العولمة في عاصمة واشنطن ، سياتل !! فما عساكم تقولون أيها السادة المناضلون ضد العولمة الرأسمالية الأميركية ؟؟

المؤسف حقاً هو أن المشتغلين في السياسة قلّما يتنبهون إلى الوجه الآخر للسياسة وهو الإقتصاد. فالعولمة التي يسيء فهمها عامة السياسيين إنما هي هجرة المؤسسات الإنتاجية الرأسمالية من مراكزها الرأسمالية الكلاسيكية (المتروبول) إلى الأطراف، وهجرتها تعود لسببين رئيسيين هما الأجور المرتفعة في المركز والضرائب الباهظة التي تفرضها دولة المركز بالإضافة إلى غلاء الخدمات اللازمة للإنتاج. عندما تهاجر مثل هذه المؤسسة الرأسمالية من الولايات المتحدة مثلاً إلى ماليزيا أو سنغافورة فإن الطرف الخاسر هو الولايات المتحدة بالتأكيد حتى وإن امتلك عدد من الأميركيين تلك المؤسسة في المهجر. فالعمال الأمريكان الذين كانوا يعملون في تلك المؤسسة يفقدون وظائفهم وينضمون إلى جيوش العاطلين، والثروة التي كانوا ينتجونها يومياً بجهودهم تتلاشى نهائياً، والضرائب التي كانت تجبيها الدولة من تلك المؤسسة تنعدم تماماً فلا تعود الدولة قادرة على إنتاج الخدمات لصالح الشعب.

إزاء مثل هذه الصورة الحيّة يجب أن يسلّم المتاجرون بسياسة المعارضة للعولمة بأن الهجرة الواسعة للمؤسسات الرأسمالية من المراكز الرأسمالية الكلاسيكية إلى الأطراف في العالم الثالث والتي اتخذت اسم العولمة (Globalization) إنما هي التجسيد الحيّ لانحلال النظام الرأسمالي وخاصة أن بلدان الأطراف لا تمتلك التربة الصالحة لإحياء النظام الرأسمالي من جديد حيث أنها بالحد الأدنى غير قادرة على إنتاج العسكرة الضرورية لحماية مثل هذا النظام القائم أصلاً على منهج القمع والإستغلال . ليتأكد العالِم ومن هم مثل العالِم أن نضالهم ضد العولمة إنما هو في النهاية مقاومة لإنحلال النظام الرأسمالي وهو بالتالي مسعى لتأبيده .

ثم لم يقل لنا العالِم ما هي أدواته في مقاومة العولمة. هل سيدعو عامة الشعب المصري إلى منع دخول رؤوس الأموال الأجنبية إلى مصر وتوظيفها بإقامة مصانع جديدة على الطريقة الرأسمالية؟ البطالة تجاوزت في مصر نسبة 30% وأقصى ما يطمح إليه العاطل عن العمل هو العثور على وظيفة تؤمن له ولعائلته المعاش. تتبارى الدول اليوم في اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية لتوظف في بلادها وتستغل عمالها (!!) ورغم ذلك يتعفف أصحاب رؤوس الأموال عن قبول مثل هذه الدعوة عكس ما كان في عصور الإستعمار الذهبية. الحزب "الشيوعي" الصيني يدعو بإلحاح أصحاب رؤوس الأموال الأجانب إلى توظيف أموالهم في الصين ، فلماذا ستصغي جماهير الشعب المصري إلى دعوة العالِم الإفقارية؟! لسوء حظ العالِم وسائر المحتجين على العولمة من الماركسيين الذين ألقوا برياتهم في الوحول ومن القوميين الذين فقدوا وظائفهم السياسية ومن الإسلامويين المتاجرين بدينهم هو أنه لا وسيلة للقضاء على العولمة إلا بقيام ثورة مضادة في مراكز الرأسمالية الإمبريالية تعيد لنظام الإنتاج الرأسمالي حيويته المفقودة وروحه التي توفاها باريها ـ وقبل أن ننتهي من موضوع العولمة لا بدّ من الإشارة إلى أن جميع المعارضين للعولمة والذين يحتشدون للتظاهر في كل عاصمة ينعقد فيها مؤتمر لمنظمة التجارة العالمية (WTO) أو السبعة الكبار (G7) هم من

البورجوازية الوضيعة الذين ينتمون إلى قاع الطبقة الوسطى ومن شذّاذ الآفاق ومن بعض الذين لم يتحققوا بعد من أنهم فقدوا وظائفهم في العمل في السياسة إلى الأبد. ومع ذلك ورغم كل ذلك فلنا أن نتساءل كما تساءل وليام كلنتون رئيس الولايات المتحدة الأميركية قبل سبع سنين عجاف .. أي خير ستجلبه العولمة للبشرية ؟!! أستطيع أن أؤكد اليوم أن أسوأ كارثة نزلت بالبشرية عبر التاريخ هي انهيار النظام الرأسمالي بالتزامن مع انهيار المشروع اللينيني الإشتراكي، وما كان ذلك ليكون لولا الطبقة الوسطى السوفياتية ممثلة بالمجمع الصناعي العسكري وبعصابة نيكيتا خروتشوف .

ذهب العالِم وغير العالِم إلى أن الماركسية نظرية فاشلة وبرهانهم على ذلك هو انهيار مشروع لينين في الإتحاد السوفياتي ونحن إذ نسلّم بأن مشروع لينين قصّر عن عبور مرحلة الإشتراكية ولم يتوصل إلى أهدافه النهائية، نطالب هؤلاء الماركسيين سابقاً أن يعترفوا بأن عالم اليوم، بعجره وبجره، هو في النهاية من صناعة مشروع لينين ؛ بل ولنا أن ندحض مزاعم الفشل ونثبت أن مشروع لينين، وهو التجربة السوفياتية، هو برهان قاطع على صحة النظرية الماركسية وليس على فشلها. كل الذين تحدثوا عن فشل التجربة السوفياتية وخلصوا إلى فشل الماركسية لم يستطع أحد منهم أن يعلل النجاحات الباهرة التي حققها البلاشفة منذ قيام الثورة 1917 وحتى ارتقاء نيكيتا خروتشوف مركز القيادة 1954 ولم يستطع أحد منهم أيضاً أن يعلل الإنتكاسات المتتالية منذ 1954 وحتى انهيار المشروع عام 1991 . لا يجوز أبداً أن نعزو الإنتكاسات في النصف الثاني من عمر التجربة إلى خلل في الماركسية ونتجاهل النجاحات الباهرة في نصفه الأول ، كما لا يجوز أيضاً أن نتجاهل الإنتكاسات في النصف الثاني من عمرها إلا إذا وجدنا أسبابها تقع خارج النظرية الماركسية.

يحرن كل الذين يقولون بفشل الماركسية في الرجوع معنا إلى أعمال المؤتمر الإستثنائي الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي عام 1959 ، يحرنون بصورة تدعو إلى الريبة والظنون حيث أن أعمال ذلك المؤتمر الشائن شكلت بداية تراجع الثورة الاشتراكية العالمية . ماذا قرر ذلك المؤتمر برئاسة خروتشوف ..

1. إلغاء الصراع الطبقي من أعمال الدولة، والصراع الطبقي كما هو معروف في الماركسية محرك التطور في المجتمع.
2. إلغاء دكتاتورية البروليتاريا التي هي الشرط الوحيد الذي حدده ماركس لعبور الإشتراكية .
3. تعظيم دور الفلاحين في بناء الإشتراكية وهو ما يعاكس تطور الإشتراكية الماركسية .
4. تفكيك الوحدة العضوية بين الثورة الإشتراكية وثورة التحرر الوطني التي هي من أهم المبادئ اللينينية .

منظمة بهذه المبادئ هي، وبحكم النظرة الأولى، منظمة معادية للإشتراكية وللشيوعية حتى وإن كان اسمها "الحزب الشيوعي السوفياتي". هذا الحزب وبعد أن لعب فيه خروتشوف

تبديلاً وتخريباً، وبعد الإنقلاب العسكري في حزيران 1957 وطرد جميع البلاشفة، رفاق لينين، من قيادته في الكتب السياسي، أخذ ينتهج سياسة تتعاكس تماماً مع روح الماركسية وتتناقض مع مبادئها الأساسية .

إزّاء هذه الوقائع التي لا سبيل لإنكارها يمكن القول بكل ثقة واطمئنان أن النجاحات الباهرة في التجربة الإشتراكية السوفياتية تعود للماركسية كليّة الصحة، كما وصفها لينين، وأما الإنتكاسات والانهيارات والأفشال فلا تعود إلا للسياسات المعارضة للماركسية ولأسباب تقع خارجها. لذلك يترتب على الذين ألقوا برياتهم الماركسية في الوحول أن يعيدوا النظر في مواقفهم .

(4)

مسكين أنت يا ماركس! لكأن لم يكفك طيلة حياتك مطاردة القوى الرجعية السوداء ومحاصرتك وتجويعك مع عائلتك، فها هي اليوم وبعد قرن ونصف القرن تلقى فوق قبرك بجيف أدعياء الماركسية المهزومين فتنتن وتختنق عظامك في لحدها. يدّعون الماركسية رغماً عنك، ونأسف عظيم الأسف لأنك لا تستطيع أن تتنكر لهم من لحدك وتدفع بجيفهم بعيداً عن متنفسك الرحيب. لذا نستأذنك يا معلم لأن نلقي بجيف هؤلاء المتمركسين رغماً عنك وعن الماركسية بعيداً عن قبرك وعن متنفسك الرحيب!!

أسوأ مساوئ خروشتشوف هي ليس تهديم المعسكر الإشتراكي حتى أساساته فقط بل أكثر من ذلك، وهي ما خلّف من أيتام منتشرين في كل فجاج الأرض. كنا تعثرنا بكبير منهم وناشدناه أن يطلّق علانية الماركسية خدمة لماركس وللحركة الشيوعية. واليوم نتعثر أيضاً بيتيم آخر هو كاظم حبيب ونرجوه أيضاً ونناشده بل نتضرع إليه أن يطلّق الماركسية بالثلاث وعلى رؤوس الأشهاد وألا يفاخر بعض الليبراليين بالماركسية التي هي ليست ماركسيته.

في مقارنة شاملة بين الدكتورين " الماركسي " كاظم حبيب وأحد الليبراليين (سيار الجميل) في المطارحة الطويلة بينهما نجد أن الليبرالي، سيار الجميل، أكثر أمانة لماركس من كاظم حبيب. فالجميل يؤكد أنه لم يجد في كل ما كتبه ماركس وصفة لمعالجة أوضاع البلدان المتخلفة مثل العراق، وهذا عين الصواب لأن ماركس لم يمارس أبداً كتابة الروشتات واقتصرت كتاباته على كيفية فحص المريض للاستهداء على الأدوية الناجعة الشافية. لكن حبيب وهو يؤكد أن البناء السياسي الفوقي إنما يشكله البناء التحتي، أي علاقات الإنتاج، لكنه يزيد على ذلك بالإدعاء أن .. " علاقات الإنتاج الرأسمالية التي هي بالضرورة استغلالية ولكن (!) يمكن العمل على تخفيف ذلك الإستغلال وضمان تحقيق أشكال مناسبة من العدالة الإجتماعية .. إعتماداً على تطور المؤسسات الدستورية ودولة القانون الديموقراطية والتعامل

الفعلي مع مبادئ الحرية والديموقراطية"، ويخلص من هذه الهرطقة إلى القول .. " وهذه الإمكانية مفتوحة اليوم أمام الدول النامية ومنها دول منطقة الشرق الأوسط ". وفي مكان آخر يقول.. " مع نمو وتطور المجتمع الرأسمالي تنشأ المؤسسات الديموقراطية من تشريعية وتنفيذية وقضائية وتتبلور وتطبق فكرة الفصل بين السلطات الثلاث ".

ماذا تبقى ماركسياً في فكر الدكتور كاظم حبيب ؟ الجواب هو قطعاً لا شيء. لا شيء أكثر مما كان لدى بيرنشتاين أو كاوتسكي أو حتى أنطوني بلير الزعيم السابق لحزب العمال أو الصهيوني شمعون بيريز من قادة الإشتراكية الدولية. أي علاقة لكاظم حبيب بماركس وبالماركسية وهو يؤمن بأن علاقات الإنتاج الرأسمالية الإستغلالية، كما يصف بعظمة لسانه، يمكن لها أن تحقق دولة القانون الديموقراطية، والتعامل الفعلي مع مبادئ الحرية والديموقراطية، كما تضمن تحقيق أشكال مناسبة من العدالة الإجتماعية؟! ـ أنت مسكين يا كارل ماركس فقد ضيعت في الأوهام عمرك، أوهام الثورة الإشتراكية، وفي تحليل نظام الإنتاج الرأسمالي لتستنتج بالتالي أن النظام الرأسمالي يلد حفاري قبره، وها كاظم حبيب يجد بعد بحث عميق، كما يكرر، عكس ما وجدت !! وجد أن النظام الرأسمالي مع بعض المعالجات الحكيمة ـ دون أن يذكر شيئاً من تلك الحكمة ـ يمكن أن يقوم ما وصفه ب " المجتمع المدني الحديث والديموقراطي ". ـ يا إلهي، كم أنت غبي يا ماركس !! تلك هي الماركسية الصحيحة وليست مثل ماركسيتك الحسودة الحاقدة، ماركسية البروليتاريا السابقة. ماركسية كاظم حبيب هي ماركسية البروليتاريا الحديثة بكل فناتها وشرائحها الجديدة. ها هو كاظم حبيب ينضم إلى حزب المحافظين الذي يحافظ على أسس النظام الرأسمالي طالما أنه يقيم مجتمع الحداثة والديموقراطية والعدالة الإجتماعية. كاظم حبيب من حزب المحافظين لكنه ماركسي رغم أنف ماركس!!

أستأذنك أيها المعلم الكبير، كارل ماركس، لأن أسر في أذني كاظم حبيب لأقول له بأنه لم يفهم بعد الأسس الأولية للنظام الرأسمالي ولا (اللانظام) الإشتراكي ـ البروليتاريا هي البروليتاريا يا حبيب! ليس ثمة بروليتاريا سابقة وبروليتاريا لاحقة كما وصفت. البروليتاريا هي طبقة العمال الذين ينتجون جماعياً وإنتاجهم يخص المجتمع بأسره (Associated Production)، سواء لبسوا ياقات زرقاء أم بيضاء أم حمراء، وسواء اتسخت أيديهم أم لم تتسخ، وسواء عملوا بأيديهم أم بوساطة الماكينة الذاتية (Auto-Machine) . أما الإشتراكية يا حبيب فهي محو الطبقات وإلغاء وسائل الإنتاج الفردي بكل أشكاله ولذلك يفضل القول اللانظام الإشتراكي لأن دكتاتورية البروليتاريا تلغي علاقات الإنتاج دون استبدالها بعلاقات إنتاج أخرى حتى الوصول إلى المجتمع الشيوعي حيث تغيب نهائياً كل علاقات الإنتاج وكل الطبقات . ما كان قائماً في الإتحاد السوفياتي لم يقم أي علاقات للإنتاج ولذلك كانت أجور العمال متساوية في كل حقل من حقول التصنيع، وتتم زيادة الأجور بالتساوي عند نهاية كل خطة خمسية وقبل أن يطالب العمال بأية زيادة. كما أن إنتاجهم لا يدفع به إلى السوق ليتحول إلى نقد.

لدى كاظم حبيب الاستعداد للإنضمام لكل حزب يعادي البلاشفة، فالبلاشفة وعلى رأسهم لينين ليسوا ماركسيين وفقاً لحبيب ـ ولمروّه من قبله ـ ولذلك تراه ينتصر للإشتراكيين الثوريين وحكومة كيرانسكي البورجوازية التي أخذت بالسياسات السليمة المناسبة لروسيا في تلك الفترة، كما زعم، وكان على البلاشفة أن يدعموا الإشتراكيين الثوريين الذين كانوا في طليعة من شنّ الحرب لإبادة البلاشفة في آذار 1918 والذين دبروا محاولة اغتيال لينين في العام 1921 وأصابته إصابة عجلت في وفاته 1924. استحق لينين الإغتيال لأنه هو الذي حرف الثورة البورجوازية عن مسارها الصحيح، كما لا يخجل حبيب في أن يفصح، وجاء بنظام دموي إجرامي على رأسه ستالين وانطلاقاً من هذه الرؤية "الماركسية"، رغم أنف ماركس، انتصر كاظم حبيب للمتآمر كوندراتييف شريك بوخارين بالإتصال مع هتلر لتدبير انقلاب ضد الدولة السوفياتية . أليس ستالين طاغية مجرماً وهو يعدم عملاء النازية !!؟ هكذا يضع كاظم حبيب نفسه مع النازيين المتآمرين على الدولة السوفياتية وهو ما يسمح بافتراض كاظم حبيب يحارب مع قطعان النازية ضد الشعوب السوفياتية والدولة الإشتراكية في عدوانهم طيلة الحرب العالمية الثانية . ألم ينكر كاظم حبيب على لينين قيامه بالثورة الإشتراكية 1917 وقطع الطريق على الثورة البورجوازية الرأسمالية !؟

ولعلم كاظم حبيب وهو قليل العلم بتاريخ الثورة الإشتراكية البلشفية فإن لينين لم يقم بالثورة الإشتراكية في أكتوبر 1917 بل قام البلاشفة بانتفاضة لتصحيح مسار الثورة البورجوازية بعد انحراف حكومة الإشتراكيين الثوريين بقيادة كيرنسكي عن الأهداف الرئيسية لثورة شباط، قاموا بانتفاضة أكتوبر بإلحاح من الجماهير الشعبية من أجل الإنسحاب من الحرب وهو ما كان أول مطالب ثورة شباط ثم لتحقيق الإصلاح الزراعي وهو البند الثاني في برنامج الثورة البورجوازية في شباط 1917، وقد قام في الأسابيع السابقة لانتفاضة البلاشفة أول إضراب للفلاحين في التاريخ عن العمل وشمل ذلك الإضراب ملايين الفلاحين في روسيا الأوروبية طيلة أكثر من شهر. معظم الصحف المسكوفية صدرت في مطالع أكتوبر 1917 تناشد حزب البلاشفة باستلام السلطة كونه الوحيد القادر على ذلك. لقد طلب لينين صبيحة الإنتفاضة من سائر الأحزاب البورجوازية بما في ذلك حزب الاشتراكيين الثوريين وحزب المناشفة وحزب الكاديت، حزب أغنياء الفلاحين الرجعي، الإشتراك في حكومته. وفعلاً تسلم الإشتراكيون الثوريون، وهم حزب بورجوازي قاد الثورة البورجوازية بقيادة كيرانسكي، تسلم ثلاث حقائب في حكومة لينين الأولى، بينما رفض المناشفة والكاديت الإشتراك في الحكومة. وفي ذات الصباح أصدر لينين كرئيس للدولة الجديدة مرسومين، أحدهما مرسوم السلام الذي يعلن انسحاب روسيا من الحرب، وثانيهما مرسوم الأرض الذي يعلن ملكية الدولة للأرض وما في باطنها توطئة لتوزيعها على فقراء الفلاحين . لقد أصدر لينين ذينك المرسومين تحقيقاً لبرنامج ثورة شباط البورجوازية . وخلال الشهور الخمسة التالية للإنتفاضة كانت جميع الأحزاب في روسيا تعمل دون أية قيود على الحريات العامة وتصدر كل الصحف وبعضها معاد للبلاشفة. ما حدث في آذار 1918، بعد توقيع معاهدة صلح (بريست ليتوفسك) مع الألمان، هو أن رفعت البورجوازية والرجعية بكل أطيافهما السلاح بوجه سلطة البلاشفة في ثورة مضادة تحت شعار

إبادة البلاشفة وكان على البلاشفة أن يدافعوا عن أنفسهم فكان أن التفت جماهير العمال والفلاحين حول البلاشفة مما ضمن لهم الإنتصار الساحق على القوى الروسية المعادية ثم على الجيوش الأجنبية لأربعة عشر دولة أجنبية، لكن ليس قبل أن يتكبد البلاشفة التضحية بعشرات الألوف من خيرة الرفاق . وفي العام 1921 لم يبق على الساحة الروسية سوى البلاشفة. فكيف للبلاشفة أن يقيموا نظاماً رأسمالياً خلافاً لرغبة الجماهير التي نصرتهم، نظاماً رأسمالياً هم غير مؤهلين للقيام به؟! بل لم يتبقّ هناك قيادات بورجوازية ليسلم البلاشفة السلطة إليهم طوعياً إن كان لأحدٍ أن يتصور ذلك !! وهكذا يمكن القول دون أدنى ريب أن البورجوازية الروسية هي التي سدت كل الطرق أمام الثورة البورجوازية ولم تترك للشعوب السوفياتية طريقاً أخرى سوى طريق الإشتراكية.

كاظم حبيب وكريم مروة وكثيرون من شاكلتهما، من الذين يعارضون اليوم ثورة أكتوبر ويستنكرونها، يعتقدون أن برنامج السياسة الإقتصادية الجديدة (NEP) الذي وضعه لينين قيد التطبيق في العام 1922 كان يسمح بتنامي البورجوازية وتنمية روسيا على طريق الرأسمالية. مثل هذا الاعتقاد السخيف لا ينم إلا عن جهل مطبق في المشروع كما في مراحل تطور النظام الرأسمالي . لم يترك لينين أية شكوك في مرامي برنامج "النيب". اعترف لينين أن البرنامج خطوة إلى الخلف على طريق الإشتراكية ومثل في الظاهر انتصارا للمفاهيم الرأسمالية على المفاهيم الإشتراكية ولكنه حذر الشعب والشيوعيين بألا يأخذوا الأمر على ما هو في الظاهر مؤكداً أن البرنامج مؤقت ريثما تتم استعادة الصناعات الروسية أنفاسها وتتمدد البروليتاريا السوفياتية بالتالي لتحتل كامل حيّزها. استعادت الصناعات الروسية أنفاسها وعادت إلى مستواها فيما قبل الحرب 1913 ولذلك لم يعد أي مبرر لانتهاج سياسة (النيب) فقرر الحزب التخلي عنها بالتدريج.

كاظم حبيب وكريم مروة يشجبان اليوم اللينينية وينتصران لبليخانوف والمناشفة. ليس لنا اليوم أن نحمّل بليخانوف والمناشفة الخزي والعار الذي نحمله لكاظم حبيب وكريم مروة وأمثالهما حيث أن بليخانوف والمناشفة لم يكن باستطاعتهم أن يتصوروا النجاحات التي حققها المشروع اللينيني . المشروع اللينيني لم ينقل روسيا فقط من تخلفها في مختلف الميادين لتحتل مكانة متميزة بين الدول المتقدمة في العالم بل إن النجاحات المذهلة التي حققها المشروع هي التي انعكست في كل ما هو تقدمي وتحرري في عالم اليوم بالرغم من كل الإنحطاط الذي ألمّ بالمشروع بفعل التحريفيين منذ ما قبل الستينيات. بعد كل ذلك يرتد كاظم حبيب وكريم مروة لأحضان بليخانوف والمناشفة !! ما كان بليخانوف والمناشفة ليتصوروا أن بلدهم المهزوم أمام الألمان في العام 1917 سيقوم بفضل مشروع لينين بسحق ألمانيا النازية المسلحة حتى الأسنان وباحتياطيات شملت كل الموارد المادية والبشرية للقارة الأوروبية، يسحقها وحيداً وكلاب الإمبريالية تتفرج على المعارك المحتدمة شرق القارة الأوروبية من وراء المانش . كيف سيمسح كاظم حبيب وكريم مروة عارهما حين تؤكد الموسوعة البريطانية أن ستالين ظهر كأقوى رجل دولة في التاريخ إذ استطاع أن ينظم خلفه قوى لم تناظرها قوة

أخرى عبر التاريخ ؛ كما تعترف نفس الموسوعة أن رجالاً عظاماً مثل روزفلت وتشرتشل لم يكونوا إلا أقزاماً بجانب ستالين . كيف بهما يمسحان عارهما حين يصفان ستالين بالمجرم والطاغية والوقائع التاريخية تسجل أن الفضل الأول في سحق غول النازية وتحرير العالم من عبودية الرايخ الثالث لألف عام يعود بصورة رئيسية لستالين . مثل هذا الفضل وحده يكفي لأن يخرس ألسنة السوء لمجندي الثقافة الرأسمالية والبورجوازية الوضيعة. هل كان الإنتصار الساحق على ألمانيا النازية ليتم بغير تقدم صناعي وتقني وثقافي واجتماعي حققه الحزب الشيوعي البولشفي بقيادة ستالين خلال عشر سنوات فقط ؟؟ كيف لمجرم وطاغية أن يحتل ركنا رئيساً من أركان المكتبة الماركسية !؟ نفس كاظم حبيب وكريم مروة كانا يصفان الإتحاد السوفياتي في خمسينيات القرن الماضي على أنه إمبراطورية الطفل ومملكة المرأة بل كان وما زال حتى اليوم دولة العلم والثقافة والفنون. هل يجوز أن يوصف من حقق كل ذلك وما يدلل على إنسانية رفيعة لا نظير لها، أن يوصف بالطغيان وبالإجرام ؟ هل كان كاظم حبيب وكريم مروة يكذبان في شبابهما أم أنهما اليوم يكذبان في شيخوختهما ؟؟

المرتدان كاظم حبيب وكريم مروة لا يفقهان من الماركسية حرفاً واحداً. يجهلان معاني الحرية ويتعرفان عليها فقط من خلال حرية أعداء الشعب من مثل بوخارين وكوندراتييف وتروتسكي وأخيراً خروشتشوف الذي بنى سيرته المخزية بشعارات الحرية والديموقراطية، فكانت الحرية للإنتهازيين والخونة وهو ما أدى بالنهاية إلى انهيار الإتحاد السوفياتي . الحرية والديموقراطية في دولة ستالين لم تكن ذات سقوف على الإطلاق وقياس ذلك لا يتحقق إلا من خلال موازاته بحرمان أعداء الإشتراكية من أية حرية . هذا ما على مثقفي البورجوازية الوضيعة إدراكه. وإلا فكيف يفسر مثقفو البورجوازية إصرار الضباط والجنود على إخضاع كافة قرارات العمليات الحربية ضد جيوش النازية في أولى سنيّ الحرب للتصويت معارضين أوامر ستالين العسكرية المتشددة بتحريم التصويت؟! وكيف يفسرون سقوط إقتراح ستالين قبل وفاته بشهور قليلة في المكتب السياسي القاضي بترحيل اليهود إلى منطقة معينة في الإتحاد السوفياتي إذ لم ينل إقتراحه صوتاً واحداً من مجموع أعضاء المكتب السياسي، وقد انعكس ذلك في نفس ستالين بالشعور بالخيبة المريرة !؟ وكيف يفسرون رفض الكاتب الروائي اليهودي إيليا أهرنبورغ طلباً لستالين، وجهاً لوجه في نهاية العام 1952، بإصدار تصريح ينفي تهمة اللاسامية عن الإدارة السوفياتية !؟ المنحرفون من أيتام خروشتشوف والمرتدون من أحفاد بليخانوف والمناشفة لا يفهمون حرفاً من حروف الحرية والديموقراطية.

كاظم حبيب يأسف بالغ الأسف لأن الإتحاد السوفياتي دخل في حرب باردة مع المعسكر الرأسمالي الإمبريالي . لكأنه يقترح أن يقوم الشيوعيون بتفكيك النظام الرأسمالي العالمي، وهو ما تستهدفه الماركسية اللينينية، بالمحارم الحريرية وبوس اللحى وتقبيل الأيادي وإلا فما عساه يكون أسلوب كاظم حبيب في تفكيك النظام الرأسمالي الإمبريالي لئن كان لديه من أسلوب ؟؟ رؤاه في الرأسمالية الإستغلالية " المتعقلنة " التي تقيم دولة القانون الديموقراطية والتي تتعامل مع الحريات بعدالة وتقيم العدالة الإجتماعية لا تبقي أية فرصة لتفكيك هكذا

رأسمالية . يقول اليوم المرتد كاظم حبيب .. " التناقضات والصراعات الطبقية يمكن حلها عبر التحول السلمي والديموقراطي " ؛ هذا ما تعلمه حبيب في مدرسة عرّابه سيء الذكر خروشتشوف الذي قال بالإنتقال السلمي للإشتراكية !! ما عساه تبقى في فكر كاظم حبيب كمبرر لوصف نفسه بالماركسي !؟ نعد هذا الرجل كما كنا وعدنا صديقة كريم مروة بأننا سنعلن شكرنا وامتناننا الكبيرين على رؤوس الأشهاد عندما يتبرأ من الماركسية أولاً وأخيراً. سنكون ممتنين فعلاً له لأن ذلك سيخدم الحركة الشيوعية خدمة جلّى .

أما " سباق " التسلح الذي يراه كاظم حبيب سباقاً بين معسكرين متنافسين فإنه في الحقيقة لم يكن سباقاً بالمعنى المعروف للكلمة. صناعة الأسلحة كانت منهاجاً تنتهجه الطبقة الوسطى السوفياتية المعادية للإشتراكية للخلاص من الطبقة العاملة ودكتاتوريتها التي ألغاها خروشتشوف رسمياً في العام 1959 . إنتاج الأسلحة كان اللعبة المفضلة لهؤلاء الأعداء الذين كانوا يصرخون كل صباح محذرين من أخطار الحرب بهجوم أميركي وأطلسي على الإتحاد السوفياتي . كانوا يسلحون جيوش العالم الثالث مجاناً ليس من أجل أن تحارب هذه الجيوش أعداءها بل من أجل أن يحاربوا هم أعداءهم، العمال السوفييت، وإفقارهم حتى من رغيف الخبز وحبة البطاطا. كان هؤلاء الأعداء يبيعون عشرين بندقية من طراز (كلاشنيكوف) لأصدقائهم بدولار واحد ليس أكثر!! مثل هذه المعادلة الغريبة وغير العادلة إنما كانت تمثل الحقد الذي تضمره الطبقة الوسطى السوفياتية للطبقة العاملة. بعد انهيار الإتحاد السوفياتي تكشّف أن ترسانة الولايات المتحدة الأميركية كانت تساوي فقط 5 - 10% من الترسانة السوفياتية . إنه لم يكن سباقاً بين المعسكرين بل كان نهباً منظماً للبروليتاريا السوفياتية. وعليه يجب أن يقلع الكتبة والمحللون عن القول بأن " سباق " التسلح كان السبب في انهيار المشروع اللينيني وأن التسلح السوفياتي كان بدفع من مؤامرة أمريكية. الإدارة الأميركية كانت على الدوام تستنكر الوتيرة المتسارعة للتسلح السوفياتي وتشير إلى أن موازنة التسلح لا تنحصر بموازنة وزارة الدفاع المعلنة بل إن كل الإقتصاد السوفياتي موجه لخدمة التسلح وكان ذلك صحيحاً. ليس بوسع أيتام خروشتشوف أن ينكروا حقيقة انهيار الإتحاد السوفياتي بفعل الصراع الطبقي، الصراع بين الطبقة الوسطى من جهة والبروليتاريا من جهة أخرى. ولسوء حظ البشرية جمعاء توفر للطبقة الوسطى قيادة قوية في مجمع الصناعات العسكرية وقيادة الجيش الأحمر ورجلها الأول نيكيتا خروشتشوف.

وأخيراً يختبئ مثقفو البورجوازية الوضيعة ومنهم أدعياء الماركسية بالرغم من ماركس، يختبئون وراء مقولة مشبوهة هي " الحقيقة المطلقة "، وعدم امتلاكها من قبل الجميع. ليس بغير هذه الحجة المغشوشة المزورة يستطيع المرتدون أن يبرروا ارتدادهم. همّ الماركسيين الأول هو التغيير الذي لا علاقة له بالحقيقة المطلقة. وفي هذا السياق قال ماركس .. " إذا كان الله هو من خلق العالم فإنه خلقه وتركه لنا ورحل إلى السماء ". الذين يقولون بعدم امتلاك الحقيقة المطلقة من قبل الجميع يرمون إلى تحريم التغيير على كل الجهات طالما أن أيّاً منها لا يمتلك الحقيقة الكاملة. إزاء مثل هذه المناورات الخبيثة أقول لجميع المرتدين ومثقفي

البورجوازية الوضيعة أن الماركسيين يمتلكون بالتأكيد الحقيقة المطلقة. الحقيقة المطلقة هي الديالكتيك؛ الديالكتيك هو الذي نسج الأكوان وجسد المادة من جانب والطاقة من جانب آخر. الديالكتيك ينفي السكون على الإطلاق وهو التغير والتطور اللذان لا ينقطعان لرفة جفن. الماركسيون اكتشفوا الحقيقة المطلقة وليس خطأً القول بأن الماركسيين يمتلكون هذه الحقيقة المطلقة. لئن كان الله هو من خلق العالم فالحقيقة المطلقة إذاك ملك للمتأسلمين، ولئن كان الديالكتيك هو المكوك الذي نسج العالم، الحي والميت سواء بسواء، فالماركسيون هم وحدهم الذين يمتلكون الحقيقة المطلقة؛ وما على كاظم حبيب وسائر التحريفيين والمرتدين سوى أن يقرروا خيارهم بين هذين الخيارين.

(5)

أقول اليوم بقوة للماركسيين الذين ألقوا براياتهم في الوحول، ومنهم بشكل خاص كبار الدارسين لماركس، أن كارل ماركس نفسه ما كان ليكون ماركسياً حقيقياً ويبني علماً إقتصادياً سياسيا واجتماعياً في غاية الموضوعية لولا انحيازه المطلق مسبقاً للإنسان المتأنسن فقط من خلال إنكبابه على تشغيل أدوات الإنتاج وهو في النهاية العامل البروليتاري . عبثاً يجتهد المجتهدون في دراسة ماركس كيما يكونوا ماركسيين حقيقيين إذا لم ينحازوا مقدماً للبروليتاريا انحيازاً مطلقاً بغض النظر عن كل الشروط . هكذا انحاز كل من كارل ماركس وفردريك إنجلز فكتبا البيان الشيوعي وأصبحا ماركسيين ؛ وهكذا انحاز فلاديمير لينين فكان يتساءل دائماً أمام كل أطروحة: ما فائدة البروليتاريا من كل هذا ؟ ؛ وهكذا انحاز جوزيف ستالين فكتب رسالته في العام 1901 حول " المسائل الملحة في الحزب " منتقداً القيادة (بليخانوف ولينين) نظراً لتركيز اهتمامها في تثقيف الإنتلجنسيا أكثر من العمال الذين هم ذوو المصلحة الحقيقية في الثورة الإشتراكية وعمادها الوحيد. وقياساً يمكن القول أن كبار الدارسين للماركسية ما كانوا ليلقوا براياتهم في الوحول لو أنهم كانوا قد انحازوا للبروليتاريا قبل انصرافهم لدراسة ماركس.

من هؤلاء الذين ألقوا براياتهم في الوحول السيد سعد محمد رحيم الذي بذل جهداً مميزاً في دراسة ماركس دون أن ينحاز ولو بمقدار للبروليتاريا. الانحياز للبروليتاريا لا يتم من خلال الشعور بضرورة العدالة والحؤول دون استغلال الإنسان للإنسان فقط بل من باب أولى هو الانحياز للإنسان الذي لا يتأنسن إلا من خلال تشغيل الآلة. السيد رحيم يشارك في بعض ما يكتب أولئك الذين يزعمون بأن الماركسية إنما هي إبنة زمانها ومكانها ولهذا يتوجب طرحها إلى الخلف. فهو يقول .. " ليس من اللائق وضعه (ماركس) فوق التاريخ والنظر إليه من وراء الزمان والمكان وإلباسه جبة القداسة " ؛ بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عامداً أن يجهز على ماركس فيقول .. " روح الماركسية .. تتجاوز الأسس النظرية والمنهج المادي الجدلي والمادي التاريخي وتلك التصورات كلها التي أطلقها ماركس المتموضع في أوروبا

القرن التاسع عشر ". لعل الإعتذار ليس مستوجباً هنا من السيد رحيم طالما أنه ما زال يعتبر نفسه " ماركسياً " إذ أنه يلعب بهذا دور العدو من داخل البيت. والعدو من داخل البيت، كما هو معروف، أشد ضرراً وأبلغ أذىً بالطبع من العدو خارجه، ولنا عبرة فيما صنعه خروشتشوف بالإتحاد السوفياتي الذي عجزت جيوش النازية والفاشية والإمبريالية عن النيل منه لكن خروشتشوف قاده إلى الإنهدام الكلي. من الغريب حقاً أن تجد امرئً، ومن البلدان المتخلفة في العالم الثالث، يستطيل قامته فيزعم أن كل ما جاء به ماركس بما في ذلك فلسفته الجدلية والتاريخية إنما هو مجرد " تصورات " لرجل عاش في القرن التاسع عشر !!

أقول للسيد سعد أن عبقرية كارل ماركس تجاوزت الزمان والمكان طالما أنه هو من وضع أو الأحرى اكتشف بالتعاون مع رفيقه فردريك إنجلز قانون الحركة في الطبيعة بمواده الثلاث: وحدة الأضداد، والتغير الكيفي بعد التغيرات الكمية، ونفي النفي؛ هذا القانون الذي لا يحكم الحركة في الطبيعة فقط بل إنه الطبيعة ذاتها بوحدة شكليها، الطاقة والمادة. كما وضع أو اكتشف قانون تطور الإنسان والمجتمع عبر التاريخ وهو قانون المادية التاريخية. كل الأشياء المادية والحية لن تفلت من نفاذ هذين القانونين عبر كل الأزمنة وجميع الأمكنة. وعليه لا تقل لي يا سعد أن ليس من اللائق أن تنظر إلى ماركس من وراء الزمان والمكان ! ليس من اللائق لكنه من الواجب حقاً أن تنظر إلى المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية خارج الزمان والمكان.

إذاً نحن أمام عبقرية أخرى تحتفظ "بالروح النقدية" من كل ما أتى به ماركس من تهويمات وتصورات عتيقة وبالية! حسناً، لنطرح الاستغراب جانباً لبعض الوقت كي نسأل عبقرية السيد سعد محمد رحيم عن التهويمات والتصورات البالية التي جاء بها ماركس؟ نسأله وهو " الماركسي " ـ روحياً فقط بزعمه ـ عن أية أطروحة ماركسية دحضتها عبقريته أو تلك التي انتقدتها فقط أو التي قومتها، كما يقول؟ نقول للسيد رحيم أن أحداً يدعي أنه يحمل روح ماركس النقدية لا يجوز له أن يطلق الكلام الرخيص على عواهنه فيلقى آخراً مثلي يسأله عن الجوز الفارغ الذي يطعم عليه.

كتابات السيد رحيم تشي بأن الرجل قد بذل جهداً كبيراً في دراسة ماركس، لكنه بعد كل هذا وبالرغم من تخصصه في الإقتصاد فإنه لم يفهم شيئاً من قراءته لكتاب (رأس المال). لقد ابتذل ماركس ابتذالاً غير مسبوق فقال .. " الحرية والمساواة والعدالة هي الكلمات الأساسية في (رأس مال) ماركس " . مسكين أنت يا ماركس !! ضيعت من عمرك أكثر من عشرين عاماً منكباً على كتابة (رأس المال) وجاء أساسه بالتالي لا يتجاوز أدبيات الثورة الفرنسية قبل أن تولد بنصف قرن !!

بالرغم من أنه ليس من طبيعتي أن أعرض مشاعري الإنسانية إلا أنني هنا لا أستطيع أن أحبس مشاعر الرثاء والشفقة على السيد رحيم وأقواله المبتذلة. كتاب (رأس المال) لماركس

بحث علمي للإقتصاد الرأسمالي بشكل خاص. وأول شروط البحث العلمي هو ابتعاد البحث عن أية مشاعر وقيم، سلبية كانت أم إيجابية، يؤمن بها الباحث، وكان ماركس بالطبع يدرك هذا الشرط جيداً فتتبع دورة الإنتاج الرأسمالي بكل دقة دون إغراض منه على الإطلاق؛ ولو سمح لأية أغراض الدخول في البحث لما اكتسب (رأس المال) بمجلداته الثلاثة كل شهرته التي لا توازيها شهرة أي كتاب آخر.

وفي ابتذال مماثل يقول السيد رحيم أن .. " ماركس فيلسوف الحياة، الخير والمحبة والحق والحرية والجمال، وأية فلسفة لا تضع الحياة بهذا المفهوم مركزاً لها ستتردى بالممارسة ". التعريف العام للفلسفة هو البحث عن الحقيقة المطلقة. الحقيقة المطلقة بالنسبة للفلسفات المثالية هي " ألله " والذي هو بوصف المثاليين والمتدينين الحياة والخير والمحبة والحق والحرية والجمال. لكن السيد رحيم يعلم تماماً أن فلسفة ماركس فلسفة مادية تنفي نفياً مطلقاً كل ما هو وراء الطبيعة. الحقيقة المطلقة لدى ماركس هي حقيقة مادية أولاً وأخيراً وهي "الديالكتيك" وهو حركة النقائض التبادلية في الوحدة الواحدة والتي تشكل جسم الوحدة ووجودها، ولادتها ونهايتها. لا يستطيع رحيم أو غير رحيم الإدعاء بأن الحركة التبادلية للنقائض في الوحدة الواحدة تنطوي على أي معنى، لا الخير ولا المحبة ولا الحق ولا الحرية ولا الجمال. تتسارع جزيئات الماء فتصبح بخاراً وتتباطأ فتغدو جليداً ، وهي ماء في سرعاتها المتوسطة لا لتسقي البشر والحيوان والنبات بل لأن درجات الحرارة العامة لكوكب الأرض هي متوسطة وقد سبق وجود الماء وجود كل أشكال الحياة. وبفعل الحركة الديالكتيكية تتغير الأشياء تغيراً نوعياً على فترات ويتم ذلك في اقتراب نحو الموت والموت يفتقد الحياة والخير والمحبة والحرية والجمال.

لا أملك إلا أن أدعي بأن الماركسيين الذين ألقوا براياتهم في الوحول، حتى وإن جرى وصف بعضهم بجهابذة الماركسية، لا يعلمون منها حتى أبجديتها. لا يجوز الإدعاء بالماركسية إذا لم يدرك المدعي أن الإشتراكية ليست نظاماً إجتماعياً بأي شكل من الأشكال بل هي على العكس تماماً، إنها تغييب النظام القائم مهما كانت طينته. لقد ظل لينين يكرر القول بأن الإشتراكية إنما هي محو الطبقات. أبدى رحيم عبقريته فنقض الماركسية مشترطا .. " عليها أن تعيد النظر بالوسائل التي تقترحها لتحقق وعدها، أو تسير نحو تحقيقه بنبذ العنف أولاً مهما حاولنا أن نعطي لهذا العنف من تسميات وصفات ملطفة. فطرق العنف لم تفض إلا إلى المآسي والفشل الذريع " . وهنا نسأل السيد رحيم عن كيفية إنتقال المجتمع من الرأسمالية إلى الإشتراكية؟ هل يتم ذلك بإقناع الرأسماليين بأن الإشتراكية هي الأفضل وأن عليهم أن يتخلوا طوعاً عن ممتلكاتهم ويعملوا بأيديهم كي يحصلوا على معاشهم؟ تسن الدولة الإشتراكية قانونا يقضي بمصادرة أدوات الإنتاج ملك الرأسماليين فهل يسلم الرأسماليون ممتلكاتهم برضا ودون عنف؟ وكيف تصادر الدولة الإشتراكية أراضي الفلاحين؟ هل سيتخلى الفلاحون طوعاً عن أراضيهم؟ جند السماء يحاربون ذوداً عن مملكتهم فهل الرأسماليون والفلاحون أرقى من جند السماء كما تشي أقوال السيد رحيم؟ الإشتراكية العلمية تقضي بمحو الطبقات؛ لئن ارتضت الطبقات أن

تمّحي طوعاً فلسوف يحيي كل من ماركس وستالين مثل هذه الشهامة الاستثنائية ولسوف يصفقان لها بحرارة. عندما انتفض البلاشفة في أكتوبر 1917 واستولوا على السلطة في روسيا لم يكن في برنامجهم استخدام العنف ضد أي طبقة من طبقات المجتمع الروسي آنذاك سوى تلك التي كانت ستحول دون تنفيذ الإصلاح الزراعي الذي كان من الأهداف الرئيسية للثورة البورجوازية في شباط. من استخدم العنف في الثورة المضادة هم الرجعية القيصرية والبورجوازية بمختلف أطيافها وأولهم المناشفة والاشتراكيون الثوريون. ففي آذار 1918، وبحجة معارضتهم لمعاهدة صلح برست ليتوفسك وشروط الصلح مع الإمبراطورية الألمانية، رفع هؤلاء السلاح بوجه البلاشفة وحددوا المعادلة في أن تبيدوا أو تبادوا. الرجعية والبورجوازية هم من فرضوا الخيار الإشتراكي الذي أصبح الخيار الوحيد فقط في العام 1919. عاد البلاشفة إلى استخدام العنف في بداية الثلاثينيات عندما خطط الفلاحون الأغنياء إلى إسقاط البلاشفة عن طريق تجويع العمال وسكان المدن من خلال حرق وإتلاف الحبوب والحيوانات. هل كان على البلاشفة أن يتخلوا عن السلطة لتتم إبادتهم بعد أن كانوا قد قدموا ملايين الضحايا في الحرب الأهلية وحروب التدخل 1918 - 1921 كيما يصح نقض السيد رحيم غير الصحيح لكارل ماركس ؟ ثم عن أية مآسي وأفشال ذريعة أفضت إليها طرق العنف يتحدث السيد رحيم ؟ كان الإتحاد السوفياتي سيكون فردوس الإنسانية لو سلم من ذئاب الإمبريالية المسعورة التي أحاطت به من كل حدب وصوب، من تشرتشل ودالادييه إلى هتلر وموسوليني وفرانكو .. ألخ

يقول السيد رحيم .. " انهيار جدار برلين وتفكك الإتحاد السوفييتي والمنظومة الإشتراكية في شرق أوروبا، هذا كله شرع طريقاً آخر للوصول إلى ماركس والتعاطي مع فكره ثانية ". وهكذا يصفق جذلاً السيد رحيم لتفكك الإتحاد السوفييتي والمنظومة الإشتراكية، فزوال المشروع اللينيني في الثورة الإشتراكية العالمية سمح للسيد رحيم وأمثاله بالتعاطي مع الفكر الماركسي ثانية بعد طول انقطاع !! هكذا يقدم رحيم نفسه على أنه من أشد الداعمين لرونالد ريغان في وصفه الإتحاد السوفياتي بإمبراطورية الشر. لكن خروشتشوف وخلفاؤه من القادة السوفيات لم يضربوا السيد رحيم على دماغه كيلا يتعاطى مع الماركسية! ولماذا يربط رحيم انقطاعه عن التعاطي مع الماركسية بوجود الإتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية طالما أنه بداية يدحض ماركس وتصوراته القديمة البالية وقد سبقت وجود الاتحاد السوفياتي؟؟

ويقول رحيم أيضاً أن الماركسية قد غدت في الإتحاد السوفياتي .. " إيديولوجية تسوغ الشر والظلم والموت، توطد باسم العقلانية والنفعية نظاماً توتاليتارياً أو دكتاتورياً بغيضاً... تقوم باسمه أنظمة تدمج الإنسان في ماكنة الدولة من خلال عمل قسري تسلبه حريته " - ألا يلاحظ الماركسي جداً رحيم بأنه يغترف من أقوال الإعلام الأميركي الرأسمالي الإمبريالي عن الإتحاد السوفياتي - وإزاء مثل هذه الأقوال البغيضة لا يسعني إلا القول بكل ثقة أن السيد سعد محمد رحيم لا يفقه من علوم السياسة حتى لا أقول الماركسية أي مفردة من مفرداتها .. لا الحرية ولا الدولة ولا الدكتاتورية ولا التوتاليتارية. ولدحض مثل هذه الترهات القديمة قدم الإمبريالية

أسال .. دولة من تلك التي يصفها رحيم بهذه الأوصاف القبيحة ؟ هل هي دولة طبقة استغلالية تختزن ريوع الإنتاج للإثراء ؟ أم دولة عصابة (Closed Circle) تنفق عوائد الإنتاج على متعها ؟ لمصلحة من تضاعف الإنتاج الوطني في الإتحاد السوفياتي عدة مرات خلال عشر سنوات 1928 - 1938؟ كيف لدولة تسلب مواطنيها حرياتهم وترغمهم على عمل قسري، دولة شريرة ظالمة بغيضة، تستطيع وقبل أن تستعد جيداً أن تسحق ألمانيا النازية بجيوشها الهتلرية الجرارة المزودة بكل موارد القارة الأوروبية المادية والبشرية ؟ لقد ظهر جلياً في الحرب الفرق الكبير بين العسكر الأحرار وغير الأحرار، الأحرار الذين دافعوا عن حرياتهم باستماتة الجنود السوفييت وغير الأحرار الذين انهزموا في الحرب مثل الفرنسيين والإنكليز والألمان والأمريكان ؛ عندما أوشكت عشرين فرقة هتلرية أن تبيد الجيوش الإنجليزية والأمريكية المطوقة في جبال الآردنز شمال شرق فرنسا ولم يفك أسر هذه الجيوش إلا الجيش الأحمر بعد أن تضرع تشرتشل على التلفون باكياً لستالين في ليلة الخامس من يناير 1945. ليس غير الشعب الحر الذي يستطيع إعمار كل ما دمرته الحرب وهو كامل القسم الأوروبي من الإتحاد السوفياتي في خمس سنوات فقط 1945 - 1950 بينما عجزت أوروبا الغربية بالمقابل عن استعادة حالها قبل الحرب خلال ذات الفترة بالرغم من المساعدات الأميركية بموجب مشروع مارشال وقد بلغت 12,5 ملياراً من الدولارات وبالرغم من أن الدمار الذي لحق بها لم يتجاوز ربع الدمار الذي لحق بالأراضي السوفياتية حيث انهزمت القطعان الهتلرية عن أرض محروقة أمام الجيش الأحمر. ليس أرخص من الكلام المستعار من الصحف الإمبريالية الصفراء يا رحيم !! عيب على كل دعيّ بالماركسية أن يأتي بمثل هذه الأقوال الكاذبة والسخيفة.

وأخيراً يدحض رحيم محوراً رئيسياً من محاور الماركسية فيقول بالاحتمال التاريخي بدلاً من الحتمية التاريخية التي قال بها ماركس. ويفهم من مثل هذا الاكتشاف الرحيمي (نسبة إلى رحيم) أن الإشتراكية لن تعقب الرأسمالية حتماً بل احتمالاً، من المحتمل أن تعقبها ومن المحتمل ألا تعقبها !! لكن السيد رحيم لم يكلف خاطره بأن يسأل نفسه عن احتمال غير المحتمل. فإذا كان من المحتمل ألا تأتي الإشتراكية بعد الرأسمالية فما الذي سيأتي؟ لم يسم رحيم أي نظام آخر وهو ما يشي بخلود النظام الرأسمالي. وهنا يتجاوز رحيم فرانسس فوكوياما الذي عاد وأنكر نظريته عن نهاية التاريخ عند إقتصاد السوق لكن رحيم تجاوز ذلك وأبّد الرأسمالية. وهو يستحق تهنئة حارة من الإمبريالية على مثل هذا الاكتشاف العظيم لكن لسوء حظه فقد توفيت الإمبريالية قبل ثلاثين عاماً.

لأن السيد رحيم رفض المادية التاريخية، ولا أقول دحضها حيث لم يأت بأي برهان، فقد قال بالاحتمال وليس بالحتمية مما يدلل على عدم فهمه لآلية عجلة التاريخ . ولا أعجب من ذلك فمعظم أدعياء الماركسية لا يفقهون جوهر الصراع الطبقي الذي هو محرك التاريخ . بفعل الصراع الطبقي تتطور قوى العمل عمقاً ومساحة كما تأتي بوسائل إنتاج جديدة. وسائل الإنتاج الجديدة هي التي تقرر طبيعة النظام الإجتماعي الجديد. وهذه الوسائل لم يقررها سوى أدوات

الإنتاج القديمة. ولهذا قال ماركس قولته الشهيرة .. الشعوب تصنع التاريخ لكن على غير ما تشتهي.

السيد سعد محمد رحيم من مواليد العام 57، وفي ذلك العام المشؤوم حدث إنقلاب قصر عسكري في الكرملين حيث اجتمع المكتب السياسي للحزب الشيوعي في حزيران بكامل نصابه وقرر سحب ثقته من خروشتشوف، لكن خروشتشوف المتكالب على الزعامة لم يتنحَ عن منصب الأمين العام كما يقتضي النظام في الحزب مثلما كان مالنكوف قد تنحى في العام 54، بل تآمر مع المارشال جوكوف ـ المرشح لعضوية المكتب السياسي وكوفئ بعد الإنقلاب بالعضوية الكاملة وطرد بعد أربعة أشهر فقط ـ الذي جمع جميع أعضاء اللجنة المركزية من أنحاء الإتحاد السوفياتي القصيّة بالطائرات الحربية دون دعوة من المكتب السياسي كما يقضي النظام، وقرر المجتمعون إلغاء قرار المكتب السياسي وطرد جميع البلاشفة وعددهم ستة منه. منذ ذلك الإنقلاب شبه العسكري بدأت الثورة الإشتراكية بالتراجع وكذلك التنمية الإشتراكية في الإتحاد السوفياتي. طرد البلاشفة من القيادة مكن خروشتشوف وعصابته في قيادة الحزب وقيادة الجيش من إتخاذ قرار بإلغاء دكتاتورية البروليتاريا في المؤتمر العام للحزب في العام 59. أود الإشارة من كل هذا إلى أن السيد رحيم لم يعايش يوماً الثورة الإشتراكية أيام تعاليها وفتح كل الحدود في العالم أمام اشتعالها. الصورة البائسة التي رسمها خرشتشوف وخلفاؤه للإتحاد السوفياتي هي ما دفعت السيد رحيم وكثيرين مثله إلى رفض القواعد الأساسية للماركسية متوهمين أن خروشتشوف وخلفاءه من بعده إنما كانوا يسترشدون بمنارة الماركسية ولم يتحققوا من أن أولئك القراصنة كانوا يجرون المركب لنهبه وإغراقه بعيداً في عتمة الليل البهيم. ليس باستطاعتي بالمقابل أن أثبت اليوم كل الألوان الوضاءة للإتحاد السوفياتي فيما قبل السبعينيات والستينيات بغير بعض الشذرات التي لم تطلها أيادي الأشرار لتمحوها. ثمة ما يشهد على أن الإتحاد السوفياتي خلال النصف الأول من عمره قد احتل دائماً المركز الأول في التنمية المادية كما البشرية. أجمع الذين زاروا الإتحاد السوفياتي في الخمسينيات على أنه كان فعلاً إمبراطورية الطفل ومملكة المرأة وهذا وذاك هما دائماً مؤشران لقمة الأنسنة، كان الإنسان السوفييتي من طينة مختلفة لا مثيل لها في العالم كله وكانت الديموقراطية الحقيقية تتجلى في كل مفاصل دولة دكتاتورية البروليتاريا. كانت أنفاس ماركس ولينين هي ما تنفخ الحياة في شرايين الدولة السوفياتية.

ولنا قبل أن ننتهي من مراجعة عبقرية سعد محمد رحيم أن نسأله بعد أن أكد لنا أنه ما زال يحتفظ بالروح النقدية لماركس بعد أن دحض " تصورات " ماركس المتقادمة وخاصة تلك المتعلقة بطريق العنف نحو تحقيق الإشتراكية. نسأله اليوم فيما إذا كان ممكناً تحقيق الإشتراكية أصلاً، وكيف يمكن تحقيق تلك الإشتراكية، وعن شكل النظام الإشتراكي " الرحيمي " وليس الماركسي طالما أن ماركس لا يقر بأن الإشتراكية نظام إجتماعي دائم ومستقر. نسأله كل هذه الأسئلة منتظرين إجاباته الشافية علنا ننقلب إلى " رحيميين " ولا نعود ماركسيين.

لئن كان علي أن أفتش عن عذر لهؤلاء الماركسيين الذين ألقوا برياتهم في الوحول فلن أجد إلا قصورهم الفكري طالما أنهم لم يمايزوا بين دولة دكتاتورية البروليتاريا بقيادة ستالين من جهة ودولة سماها خروشتشوف " دولة الشعب كله " بقيادة خروشتشوف نفسه منذ العام 1954 وحتى العام 1964 وخلفائه من بعده منذ العام 1964 وحتى الإنهيار الكلي في العام 1991؛ لم يميزوا بين الثورة الإشتراكية تتعالى حتى محاصرة مراكز الرأسمالية في العام 1954 وبينها تخلي مواقعها المتقدمة وتتراجع حتى الإنهيار بعدئذٍ؛ لم يميزوا بين قيادة تسترشد بالمنارة الماركسية اللينينية ودولة تشيح بوجهها عن تلك المنارة. إنني أدعو جهابذة الماركسية الذين ألقوا برياتهم في الوحول إلى الشروع من جديد بدراسة تاريخية تنصب في الممايزة بين الدولتين والقيادتين. ليس لدي أدنى شك في أن الذين يقولون باستمرار النهج الستاليني بعد العام 1954 ـ وهو قول شائع رغم كل العداء الذي أبداه خرشتشوف وخلفاؤه لستالين وتراثه ـ إنما هم أعداء للإشتراكية يعزفون أنغاماً يحسبونها ديموقراطية وهي ليست كذلك.

(6)

كنا قد أشرنا أكثر من مرة إلى أن من أكبر معوّقات العمل الشيوعي هو تهرّب أبناء البورجوازية الوضيعة، الذين تلوّنوا بالماركسية وفق مقتضيات الحاجة، تهرّبهم الدائم من تفسير انهيار المعسكر الاشتراكي والنظام الإشتراكي في الإتحاد السوفياتي بعد أن كان قد عبر بنجاح فائق أصعب التجارب والامتحانات قبل أن يتصلّب عوده ويخرج من الحرب العالمية الثانية كأقوى قوة في الأرض . السواد الأعظم من هؤلاء البورجوازيين الوضعاء كانوا وطنيين يتدثرون بمعاطف ماركسية . وها هم اليوم يهربون من وظيفة الماركسيين الأولى وهي تفسير التاريخ، وخاصة انعطافه الحاد بانهيار المعسكر الإشتراكي، يهربون تحت شعارات سخيفة ومضحكة كالقول بالبيروقراطية سبباً للانهيار أو المؤامرة الخارجية . وثمة فئة أخرى من البورجوازية الوضيعة، هي بطبيعتها معادية للإشتراكية لكنها اعتمرت برانيط ماركسية، تزعم اليوم أن مشروع لينين في الثورة الإشتراكية العالمية كان ذا وظيفة روسية تاريخية محددة تتمثل بتراكم رأس المال (Capital Accumulation) كأساس لا غنى عنه لإقامة النظام الرأسمالي . فكان أن قام في الإتحاد السوفياتي رأسمالية الدولة، كما كانت قد أفتت العضو القيادي في حزب التجمع المصري السيدة فريدة النقاش، وانتهى ذلك إلى ظهور اقتصاد السوق في روسيا كما يدعي اليوم الكاتب السوري السيد محمد سيد رصاص ويفتي بأن الوريث الشرعي للينين هو بوريس يلتسن وليس خروشتشوف أو أندروبوف، يلتسن الذي أتى باقتصاد السوق . هؤلاء القوم لم يدركوا بعد الفرق بين الرأسمالية والإشتراكية بالرغم من بقائهم في صفوف الحزب الشيوعي عقوداً وعقود.

بمثل هذه التخرصات المتعارضة مع أبسط قوانين العلوم الاقتصادية علل السيد رصاص انهيار المعسكر الإشتراكي دون أن ينتبه إلى ما وقع فيه من تناقض حيث الإنتقال من " رأسمالية

الدولة " إلى ما يسمى ب "اقتصاد السوق" لا يجوز اعتباره انهياراً طالما أن ذلك لا يقتضي انهياراً في البنى الإقتصادية والسياسية . الإنتقال من رأسمالية الدولة إلى إقتصاد السوق هو نهوض وليس انهياراً . الغطاء الماركسي للقوّالين بالبيروقراطية وبالمؤامرة هو أكثر ستراً مما يستر القوالين برأسمالية الدولة وباقتصاد السوق إذ اقتصر لبوسهم الماركسي على البرانيط، وها هم اليوم يخلعون البرانيط وينتقلون دون حياء أو خجل إلى صفوف أعداء العمال وأعداء الإشتراكية . الشيوعيون سابقاً الذين لم يقرأوا (رأس المال) لماركس تورطوا في مقولات خرقاء تفضح جهالتهم فقالوا برأسمالية الدولة السوفياتية ؛ وجهل السيد رصاص أكثر فقال ب(اقتصاد السوق).

نعود بفريدة النقاش وبسيد رصاص إلى العام 1922 حين اضطر لينين بفعل الدمار الذي حلّ بالصناعات الروسية جرّاء الحرب العالمية الأولى وما تلاها من حرب أهليه وحروب التدخل الإستعمارية وقد استغرقت جميعها تسع سنوات 1913 - 1922، اضطر إلى العمل ببرنامج السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP) التي اقتضت الخضوع لمفاعيل قانون القيمة الرأسمالية وقوانين العرض والطلب . لكن ذلك لم يمنع لينين من التأكيد على انتصار البروليتاريا والاشتراكية بالرغم من أن النيب مثل بشكل ما انتصاراً محدودا للإقتصاد الرأسمالي ، أو خطوة واحدة إلى الخلف بوصف لينين . لو استمر اقتصاد النيب لكان في ما يتفوه به سيد رصاص وفريدة النقاش شيء من الحقيقة ؛ لكن الحزب الشيوعي بقيادة البلاشفة وعلى رأسهم ستالين سرعان ما تخلّى عن اقتصاد النيب ومفاعيله مبكراً في العام (1926) حين استطاعت البروليتاريا السوفياتية من استعادة الصناعة لمستوى عام 1913 قبل الحرب.

نظام الإنتاج الرأسمالي لا ينمو إلا في تربة السوق، والسوق الحرّة بداية ؛ وبدون وجود مثل هذه السوق يموت النظام الرأسمالي مخنوقاً ؛ ولذلك رأينا القرنين التاسع عشر والعشرين حبلى بالحروب الإستعمارية الهادفة إلى توفير الأسواق وإعادة تقسيمها . في النظام السوفياتي لم يكن هناك أي سوق، وهو ما يعني مباشرة القطع التام ما بين السلعة وبين قيمتها الرأسمالية . هذه الحقيقة وحدها تنفي نفياً قاطعاً أي شبهة رأسمالية عن النظام السوفياتي . لا يمكن لأي نظام رأسمالي أن يوفر مختلف الخدمات الأساسية للإنسان وللمجتمع مجاناً وبدون أي مقابل . الخدمات الصحية والطبية بمختلف أنواعها ومستوياتها كانت مجانية تماماً، ومثلها الخدمات التعليمية والثقافية بل كان الطلاب في المدارس والجامعات يتقاضون رواتب شهرية . كما كانت المواد الغذائية كالخبز والألبان واللحوم شبه مجانية ؛ وكانت أجور المساكن رمزية . فكيف والحالة هذه يمكن أن يقال بأن النظام السوفياتي كان رأسمالياً من فئة رأسمالية الدولة ؟ كيف يمكن وصف الإقتصاد السوفياتي بالرأسمالي طالما أن الإنتاج بمجمله كان يتم تخصيصه مسبقاً وقبل أن يتم إنتاجه إلى المؤسسات المختلفة دون بدل أو أثمان؟

ما يمكن أن يؤكده المرء لدى سماع تفوّهات السيد رصاص والسيدة النقاش حول ما سمّياه "رأسمالية الدولة السوفياتية " هو أن هذين الشخصين كانا قد صرفا حياتهما بغير طائل .

قضى كل منهما عمره يناضل ضد عدوّ لا يعرفه، هو النظام الرأسمالي . ليقل لي السيد رصاص أي سيماء مشتركة بين النظام الرأسمالي والنظام السوفياتي ! بل ثمة ما هو أكثر من ذلك فإن هذين المناضلين الإشتراكيين لا يعرفان من الإشتراكية حرفاً واحداً وقد وصما الإشتراكية السوفياتية برأسمالية الدولة ! التحدي الكبير أمامهما هو أن يتعرّفا على النظام الإشتراكي . ما هو النظام الإشتراكي ؟ أنا أراهن على أن أيّاً منهما لن يفلح في الإجابة على هذا السؤال . ثم ما الذي كان سوفياتياً ولم يكن اشتراكياً ؟ لن يقولا شيئاً آخر غير تلك التفوهات الكاذبة من صناعة ماكنات الإعلام الرأسمالي، أكذوبة البيروقراطية وغياب الديموقراطية . السيد رصاص سخر بداية من المتقولين بغياب الديموقراطية سبباً لانهيار الإتحاد السوفياتي لكنه ما لبث أن عاد ليقول ذات القول ويتحدث عن الحكم المطلق كوسيلة وحيدة لاستكمال عملية تركيم رأس المال . وهنا يحق للمرء أن يتساءل كيف لعالمي الإقتصاد، رصاص والنقاش، اللذين اكتشفا ما لم يكتشفه علماء الاقتصاد الآخرون، كيف لهما أن يظلا مخدوعين طيلة العمر من قبل البلاشفة الروس ظناً منهما أن هؤلاء البلاشفة اشتراكيون وتبين فيما بعد أنهم مؤسسون أمناء للنظام الرأسمالي ؟!! وهنا أيضاً يحق للمرء أن يفترض أن رصاص والنقاش هما اليوم مخدوعان وليس أمساً.

السيد رصاص موقن أن النظام السوفياتي كان في مرحلة تراكم رأس المال لأن الحكم كان مطلقاً وعلى أساس الحزب الواحد . جرت القاعدة العامة في أن يستدل أهل العلم على النظام السياسي من خلال العلم بالنظام الإقتصادي حيث أن النظام السياسي هو التابع الأمين للنظام الإقتصادي، لكن السيد رصاص جرى خلافاً للقاعدة العامة واستدل على النظام الإقتصادي من خلال النظام السياسي . واتساقاً مع الاستثناء الوحيد والفريد الذي انتهجه السيد رصاص فالنظام في الاتحاد السوفياتي كان يمكن أن يكون اشتراكياً لو كان هناك حزب واحد على الأقل، عدا الحزب الشيوعي، غير اشتراكي ويناضل بقوة في مقاومة الإشتراكية!!

مثلما يجهل السيد رصاص الرأسمالية والإشتراكية فهو يجهل أيضاً الديموقراطية. ولئن كان مذنباً في جهله بالرأسمالية وبالإشتراكية فإنه غير مذنب في جهله بالديموقراطية إذ كثيرون قبله من شيوعيي البورجوازية الوضيعة وأولهم خروشتشوف كانوا قد قالوا بالحكم المطلق في عهد ستالين وانحرفوا ليؤيدوا تروتسكي فيما كان يزعم. ما كان في الإتحاد السوفياتي هو الديموقراطية الإشتراكية، الديموقراطية التي لا يستطيع البورجوازيون الوضعاء التعرف عليها. إنها الديموقراطية الإشتراكية التي بدونها لا تقوم دولة دكتاتورية البروليتاريا التي بدونها يستحيل أن تكون هناك اشتراكية كما أكّد ماركس. قد يخطئ السيد رصاص ويحتج على استدلالي عن الإشتراكية من خلال دكتاتورية البروليتاريا والرد على مثل هذا الإحتجاج غير السويّ يأتي في نقطتين أولاهما هي أن الإشتراكية ليست نظاماً على الإطلاق كما يسيء الإعتقاد الكثيرون ومنهم شيوعيو البورجوازية الوضيعة؛ دكتاتورية البروليتاريا تلغي علاقات الإنتاج القائمة دون أن تقيم علاقات إنتاج بديلة، وهذا عمل لا تقوم به إلا دولة دكتاتورية ودكتاتورية البروليتاريا تحديداً. والنقطة الثانية هي أن تعيين البروليتاريا في الحكم يعني

مباشرة الإشتراكية، لكن السيد رصاص عين النظام الرأسمالي على يد البلاشفة وليس على يد الرأسماليين، فلو قال البلاشفة الرأسماليين لانتحى اعتراضنا منحىً مختلفاً.

الترهات والأكاذيب التي سوّقتها ماكنات الإعلام البورجوازية والإمبريالية في كل العالم حول الدكتاتورية الفردية لستالين والغياب التام لكل مفردات الديموقراطية، هذه الترهات والأكاذيب أضفى عليها بعضاً من الشرعية والمصداقية البورجوازي الوضيع نيكيتا خروشتشوف وقد أخذ يدين التجربة السوفياتية منذ انشقاق عرّابه الخائن بوخارين وحتى رحيل ستالين في مؤتمرات الحزب العامة، العشرين 56، والواحد والعشرين 59 والثاني والعشرين 61. كل الشيوعيين من البورجوازية الوضيعة اصطفوا وراء خروشتشوف مع التصفيق الحاد والمتواصل من كل أركان الرأسمالية والإمبريالية وماكيناتهم الإعلامية الجبارة في العالم. كل هؤلاء اتفقوا على إدانة طغيان ودكتاتورية ستالين. ما زالت هذه الدعاية السميّة رغم مرور نصف قرن على انتهاء دكتاتورية ستالين والإنفتاح على ديموقراطية خروشتشوف، ما زالت هي بضاعة الطبقة الوسطى والبورجوازية بشقيها الكبير والوضيع حتى قالوا أخيراً أن ضحايا ستالين بلغوا خمسين مليوناً؟! البورجوازيون لن يصدّقوا، رغم كل الحقائق والوقائع، أن هناك ديموقراطية اشتراكية في عهد ستالين أرقى بمراحل كبيرة من الديموقراطية البورجوازية. فمثلا في العام 1952 وحين كان ستالين بأوج عظمته بعد أن حقق نجاحاً باهراً في إعادة إعمار ما هدمته الحرب خلال فترة قياسية 1945- 1950، وبعد أن تم اكتشاف مؤامرة الأطباء اليهود على حياة القادة السوفييت، إقترح ستالين على المكتب السياسي أن يصار إلى تجميع كل اليهود في جمهورية واحدة من جمهوريات الإتحاد السوفياتي، لكن مقترح ستالين لم يحظ بصوت واحد من أعضاء المكتب السياسي للحزب الإثني عشر. تأثر ستالين كثيراً من فشل اقتراحه وعندما نهض لمغادرة الإجتماع وقع مغشيّاً عليه. وبعد أيام استدعى ستالين الكاتب الروائي اليهودي الشيوعي المشهور إيليا أهرنبورغ وطلب إليه أن يصدر بياناً يؤكد فيه أن اللاسامية لا مكان لها في السياسة السوفياتية، لكن أهرنبورغ رفض أن يصدر مثل ذلك البيان رغم إلحاح ستالين. لا أعتقد أن لمثل هذه الديموقراطية المثلى مكاناً في سياسة دول الديموقراطيات البورجوازية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا. لن تجد مطبخاً سياسياً فيها يعارض كله وبالإجماع مقترحات رئيس الدولة. أهم القرارات السياسية والإقتصادية كانت تقرر في القواعد سواء كان ذلك في الحزب أم في المعامل والمصانع. بل وصل بهم الأمر إلى حدود مستهجنة حيث كانت القرارات بخصوص العمليات الحربية تؤخذ من قبل القواعد، من الجنود وصف الضباط. وقد انعكس ذلك في اختلالات في بداية الحرب ضد النازية ولم يتوقف بعد إصدار القيادة العامة الأمر اليومي عدة مرات بوقف التصويت على العمليات الحربية. لم يتوقف التصويت على العمليات الحربية للجبهة الجنوبية على البحر الأسود بقيادة فورشيلوف. الفرق بين ديموقراطية ستالين وديموقراطية خروشتشوف هو كالفرق بين ابن ستالين فاسيلي وقد طلب من والده ستالين ثمناً لبذلة اشترى مثلها رفاقه الضباط ورفض ستالين لهذا الطلب بحجة أن الجيش يوفر ملابس جيدة للضباط فيه، وابنة خروشتشوف بالمقابل التي كانت ترسل غسيل عائلتها إلى باريس ليعود إليها بالطائرة مغسولاً ومكويّاً وملفوفاً كما يجب، وكانت

تستورد وجبات عائلتها الغذائية من باريس أيضاً؛ بل كالفرق بينها وبين ستالين نفسه الذي لم يجد مشيعوه بذلة مناسبة يلبسها أثناء تشييعه فكان أن تأخر التشييع عن الموعد المقرر حتى تم إرسال بذلته القديمة لرتقها عند الخياط!! يتناسى هؤلاء الكذبة والمخادعون مثل هذه الوقائع لأنهم لو اعترفوا بها لما تمكنوا من معاداة الإشتراكية. والسيد رصاص والسيدة النقاش يعاديان اليوم الإشتراكية دون وعي منهما!

ومن الدلائل القاطعة إلى أن السيد رصاص لم يعرف أو يتعرف على النظام السوفياتي قبل أن يصفه بالنظام الرأسمالي في مرحلة تراكم رأس المال، كما سبق أن وصفته السيدة فريدة النقاش، هو تشبيه النظام السوفياتي بالنظام الناصري بل وبنظام عصابات البعث. لا يجوز بحال من الأحوال تشبيه النظام الرأسمالي في مرحلة تراكم رأس المال بنظام البورجوازية الوطنية في مرحلة التحرر الوطني وفك الإرتباط مع المراكز الرأسمالية الإمبريالية وهو ما كان عليه النظام الناصري. التحرر الوطني وفك الروابط مع المراكز الرأسمالية الإمبريالية في مرحلة الصراع والاستقطاب الثنائي (اشتراكي >< رأسمالي) في خمسينيات وستينيات القرن الماضي لم يكن ليسمح لأي دولة من دول العالم الثالث بالانفلات من دائرة الصراع لتبني معزولة نظامها الرأسمالي بعد انقضاء مرحلة تركيم رؤوس الأموال وهو القيد الذي سماه المناضل والمفكر المصري الدكتور سمير أمين بقانون القطيعة الرأسمالية. أما نظام عصابات البعث المتنابذة فهو ليس نظاما وطنياً ولا يستوي مع قواعد أي نظام، باستثناء جماعة الأتاسي – جديد في سوريا 1966 – 1970 التي حاولت جاهدة أن تعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي. ففي الثامن من شباط 1963 قامت عصابة بعثية وقومية عسكرية متآمرة متصلة بالاستخبارات الأميركية والبريطانية باغتصاب السلطة من جماعة وطنية بقيادة عبد الكريم قاسم نحت إلى فك الروابط مع مراكز الرأسمالية الإمبريالية. لم يستهدف الإنقلاب أغراضاً وطنية بل استهدف كما ثبت مؤخراً جني الإمتيازات على حساب جماهير الشعب الكادحة. وبالمثل قامت عصابة بعثية عسكرية متآمرة باغتصاب السلطة في سوريا بعد شهر تحديداً في 8 آذار من البورجوازية السورية العريقة بثورتها منذ بداية القرن العشرين. عصابات البعث في سوريا والعراق أزاحت قوى وطنية أكثر عراقة منها وأنفقت معظم الإنتاج القومي على أمن عصابتها فكان أن انتهى كل من سوريا والعراق إلى الكارثة على مسار التنمية. التطور التاريخي لا يسمح بمقارنة النظام السوفياتي بالأنظمة في مصر وفي سوريا والعراق. وكيف يمكن مقارنة النظامين في مصر وسوريا وقد انهزما شر هزيمة مراراً وتكراراً أمام دويلة صغيرة هي إسرائيل بينما قام الاتحاد السوفياتي وحيداً، نعم وحيداً، بسحق ألمانيا النازية المدعومة بكل الموارد المادية والبشرية في القارة الأوروبية، بعد احتلال فرنسا ومجمل القارة الأوروبية وبعد هزيمة بريطانيا في دانكرك؟

العديد من شيوعيي البورجوازية الوضيعة يتجاوزون حدودهم المعرفية فيلووا أعناق الحقائق خدمة لبنائهم نظريات متهالكة لا تقوى على الصمود أمام أدنى محاكمة. محمد سيد رصاص جعل من النظام السوفياتي رأسمالية دولاتية اجترحها أكبر بلشفي في التاريخ، فلاديمير لينين،

ليخلفه وريثه الشرعي، بوريس يلتسن، فيقيم "إقتصاد السوق"! أي فذلكة استحالت على أولي العلم والألباب أتى بها السيد رصاص!! هكذا، الوريث الشرعي للينين هو يلتسن وليس ستالين أو خروشتشوف أو حتى تروتسكي!! إنه يلتسن الذي انتسب إلى الحزب الشيوعي من أجل الحصول على وظيفة مناسبة، كما اعترف هو نفسه!!

ليس ثمة من شك في أن معلومات السيد رصاص في علوم الإقتصاد في غاية التواضع، ورغم ذلك سمح لنفسه أن يمخر في عباب محيط هادر تكتنفه أخطار شتّى. أبدى جهلاً مطبقاً في الإقتصاد الرأسمالي وجهلاً مماثلاً في طبيعة الإشتراكية وانتهت به الجهالة إلى اعتبار علاقات الإنتاج والمبادلات التجارية الجارية حالياً في روسيا الإتحادية هي من مفاصل ما يسمى ب "إقتصاد السوق". لقد اعترف أساطين النظام الرأسمالي قبل نصف قرن أن نظامهم الرأسمالي قد تجاوز منذ أمد مرحلة اقتصاد السوق إذ أن السوق لم تعد حرة في مرحلة الإمبريالية وتنامي التروستات والكارتيلات. الإدارة الكينزية (John Keynes) للإقتصاد والتي تقوم على ضبط السوق وتقييده ضمن حدود معينة كانت قد أصبحت منذ أربعينيات القرن الماضي النهج الوحيد لإطالة عمر النظام الرأسمالي. حاولت مارغريت ثاتشر في بريطانيا ورونالد ريغان في الولايات المتحدة التحرر من قبضة الكينزية وإطلاق العنان لمفاعيل السوق (إقتصاد السوق) لكنهما انتهيا إلى فشل ذريع. إقتصاد السوق أصبح من التاريخ الذي لا يعود.

من المفاجئ حقاً أن تتعالي اليوم صيحة "إقتصاد السوق" ومن الطبقة الوسطى تحديداً، وهي الطبقة التي لا يعطيها الإقتصاد الرأسمالي حصة ذات شأن في السوق القائمة أصلاً على مفاعيل قانون القيمة الرأسمالية. لذلك بتنا نسمع صيحة أخرى مرافقة لصيحة اقتصاد السوق تقول ب "إقتصاد المعرفة" بمعنى أن المعرفة (know how) هي العامل الحدي في تحديد قيمة السلعة أو الخدمة وليس جهد العمل (labour-power) كما كان الحال قبل العام 1975. السوق الذي تقيمه الطبقة الوسطى اليوم في العالم كله هي سوق مختلفة تماماً عن السوق الرأسمالية بل والمعارضة لها كل المعارضة. بسبب انهيار المشروع اللينيني من جهة وانتهاء عمر النظام الرأسمالي من جهة أخرى تيسّر للطبقات الوسطى في مختلف بلدان العالم أن تسود مؤقتاً وتقيم سوقاً مصطنعة مزورة يغيب عنها قانون القيمة الرأسمالية غياباً تاماً وتذبح فيها البروليتاريا بالاستنزاف الجائر فتستبدل البضاعة المزورة للطبقة الوسطى، المعرفة، بأكبر قدر ميسور من السلع. وهكذا أخذ العمال يخسرون 80% من قيمة جهدهم المبذول في سوق النصب والاحتيال القائمة اليوم بعد أن كانوا يخسرون 20% فقط في السوق الرأسمالية. سوق اليوم، إذا جاز تسميتها بالسوق، تدمر الإقتصاد ولا تبنيه.

السمة الأبرز لعلاقات الإنتاج والمعاملات التجارية في روسيا اليوم التي وصفها السيد رصاص باقتصاد السوق هي غلاء المعيشة، وهي الأغلى في العالم، يقابله انخفاض في الأجور، وهو الأخفض في العالم أيضاً. مثل هذا التباين لا يعني إلا شيئاً واحداً وهو أن السلع والخدمات تتم

مبادلتها بأضعاف قيمتها وهو ما يعني مباشرة أنه ليس من سوق في روسيا طالما أن القانون النافذ في السوق يحكم بمبادلة السلع بقيمتها.

مسئولية الشيوعيين اليوم هي أعظم منها في أي وقت مضى. انهار المشروع اللينيني تحت ضربات الطبقة الوسطى المتلاحقة، وتفكك النظام الرأسمالي العالمي بفعل تهالك بناه من جهة، ومحاصرته من قبل المعسكر الإشتراكي وقوى التحرر الوطني في العالم من جهة أخرى، فظهر نتيجة ذلك "نظام" هجين هو نظام الطبقة الوسطى المتنكر لكل القيم الإنسانية عداك عن القيم الرأسمالية، نظام يشكل خطراً داهماً قد يكون ماحقاً على البشرية جمعاء. لذلك تقوم مسئولية الشيوعيين، كونهم الماركسيين ذوي الخبرة المتميزة في قراءة التاريخ وتحديد مساره، في أن يحموا الشعوب من الانخداع بالبضاعة المزورة، بأفكار لا تخدم إلا مشروع الطبقة الوسطى الإجرامي. عليهم قبل كل شيء ألا يكتبوا في مسائل محورية لم يدققوا في حيثياتها كما يكتب اليوم الكثيرون منهم من مثل السيدة فريدة النقاش من مصر والسيد محمد سيد رصاص من سوريا.